د. منير لطفي

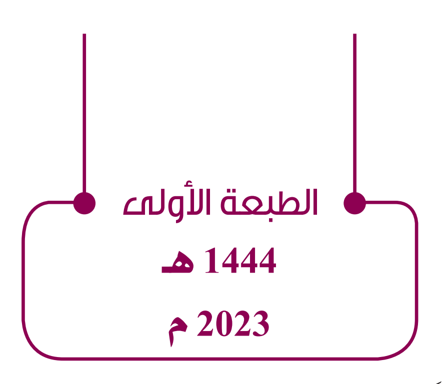
أمالي الغزالي

سياحة في بستان الإمام الغزالي (إحياء علوم الدين)



أَمَالِيِ الغَزَالِي

سياحة في بستان الإمام الغزالي "إحياء علوم الدين"



اسم الكتاب: أَمَالِـي الغَزالي

التأليف: د. منير لطفي

موضوع الكتاب: إسلامي

عدد الصفحات: 292 صفحة

عدد الملازم: 18.25 ملزمة

مقاس الكتاب: 17x24

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2023 / 00000

الترقيم الدولي: 0 - 000 - 278 - 977 - 978








01012355714 - 01152806533





سياحة في بستان الإمام الغزالي "إحياء علوم الدين"

د. منير لطفي




بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ
مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾
[لقمان ٢٢]



إهداء

إلى الأخ الحبيب/ م. خالد مطر..

دامت بالعطاء أياديكم البيضاء


الإمام

الحمد لله الـمُبدِئ الـمُعيد، الـمُحيي الـمُميت، الهادي بنوره إلى سواء السبيل. وأصلّي وأسلّم على سيّد المرسلين وإمام المتّقين وحُجّة الله على العالَمين، وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدّين.. أما بعد:

كما ملأ المتنبِّي الدنيا وشغل الناس بالشّعر منذ القرن الرابع الهجري، فقد ملأ الإمام الغزالي الدنيا وشغل الناس فقيها وأصوليّا ومفكّرا وفيلسوفا وصوفيّا ومُربيا منذ القرن الخامس الهجري!

وبينما تركَنا المتنبّي على قارعة الطريق نتخرّص في مولده ونشأته، ونضرب أخماسا في أسداس حول تفاصيل رحلته الغامضة بين القصور، فقد أحسن إمامُنا صنعا حين ترجم لنفسه ووضع أكثر النقاط على الحروف، إذْ كفى الباحثين والمؤرّخين والمريدين مؤونةَ التحقيق في المولد والنشأة والتعليم، وصرف أقلامَهم إلى مُنتَجه البارز كثالث ثلاثة في ريادة المدرسة الأشعرية، وحامل أختام المذهب الشافعي، وباني نهضة في صرح الإسلام العظيم؛ استحقّ على أثرها لقب الشافعي الثاني ولقب مجدّد خامس القرون بلا منازع. فضلا عن عشرات المؤلّفات هي إلى المكتبة أقرب؛ نظرًا لغزارتها وتنوّعها وثرائها، وهو ما حدا بزكي مبارك إلى التساؤل قبل ثلاثة أرباع قرن: متى تعود سيطرة الغزالي العلمية والروحية ليتّجر في كتبه أقطابُ المال؟ ومتى نرى في القاهرة مكتبة لا تنشر غير مؤلَّفات الغزالي؟

وقد بدأ –رحمه الله– التصنيف في سنّ الثامنة والعشرين، وهي سنّ مبكّرة تُنبئ عن النبوغ وقصب السبْق، مفتتِحه بكتابه "المنخول في علم الأصول"، والذي مدحه شيخُه وأستاذه الجويني بعبارة نحيفة المبنى سمينة المعنى فقال: دفنْتَني وأنا حيّ! واختتمه وأناخ راحلة قلمه قبل أسبوعيْن فقط من وفاته

بكتاب "إلجام العوام عن علم الكلام"، وفيه ردّ على تأويلات المتكلّمين فيما يخصّ النصوص الشرعية، وأبان عن حقيقة مذهب أهل السلف. وفي المدة الفاصلة بين المنخول والإلجام، ذاعت حتى شرّقت وغرّبت – ثلاثيتُه الأشهر: "تهافت الفلاسفة"، و"إحياء علوم الدين"، و"المنقذ من الضلال"، وهذا الأوّل عُدّ ضربة قاصمة للفلسفة الشرقية وكاد يضرب الفلسفة الغربية بمثلها لولا أنّ ابن رشد نفخ فيها الروح إلى حين رَدّ عليه بكتابه (تهافت التهافت).

ومَن أراد إحصاءً محقَّقا ومرتَّبا لجملة المؤلّفات التي من كثرتها قيل: إنها لو وُزّعت على أيام عمره لأصابت كلّ يوم كرّاسا[1]؛ فعليه بالفيلسوف جمال بدوي ضمن كتاب خصّصه لهذا الغرض وبذل فيه الجهد الجهيد. ولشهرته وعلوّ كعبه في التصنيف – حتى ذُكر أن محمّدا ﷺ سيّد المرسلين، والشافعي سيّد الأئمة، والغزالي سيّد المصنِّفين – نرى عشرات الكتب نُحلت إليه وهو منها براء؛ لا لشيء إلّا ليطير هذا الكتاب أو ذاك عاليا كالنسر فيذيع بين الناس ويشيع، وصدِّق أو لا تصدّق أنّ من بينها ديوان شعر! وهو كذب لو يعلمون عظيم!

لقد امتشق القلم كالحسام ـ كمُجاهد من نوع خاص ـ وجعل الحقيقة مبحثه والحقّ مبتغاه؛ فحمل من خلال قلمه على الباطنية المارقة، وفنّد أباطيل الفلسفة في الإلهيات، وعاب وشنّع على متكلّمين يشقّقون الكلام ويفرّعونه في غير طائل، ثمّ شدّ القوْس وكشف العوار وجلد علماء السلطان بسوْط من بيان، ونحا باللائمة على أهل الشطْح من الصوفية الحلولية والاتحادية والاتّكالية، فكان بحقّ جيشا ذا ميْمنة وميْسرة ومقدّمة وقلب ومؤّخرة، تحارب كلٌّ منها على جبهة ملتهبة كالأتون.. وهكذا يكون الرجل الأُمّة الذي يتصدّر المعامع وينقل المجتمعات من السكون إلى الحركة، ومن الكسل إلى النشاط، ومن الغفلة إلى الانتباه.

---

(١) الكرّاس هو ما نسمّيه في عالَم الطباعة اليوم بالمَلزمَة وقوامها ستّ عشرة صفحة.

وتتلخّص طريقته ومنهجيّته: في أخْذ العلم من منابعه، متبحّرا مستقصيًا متضلِّعًا، إلى أن يساوي أكبر رأس تتربّع على عرش هذا العلم، ثمّ بعد ذلك يدلي بدلوه جَسورا غير هيّاب ومقتحما غير حَذور، وهو ما ذكر طرفًا منه في (المنقِذ) بقوله: "ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقْت البلوغ وقد أنافت السنّ الآن على الخمسين، أتفحّص عقيدة كلّ فرقة وأكشف أسرار مذهب كلّ طائفة؛ لأميّز بين مُحِقّ ومبطِل، ومتسنِّن ومبتدِع، وقد كان التعطُّش إلى درك الحقائق غريزة وفطرة من الله وُضعت في جبلّتي؛ لا باختياري وحيلتي".

وفي ظنّي أنه لو لم يكن إماما بارعا في الدّين، لكان رأسا شامخا في الطبّ كابن سينا والرازي؛ إذ تراه إن احتاج إلى تمثيل أو تشبيه غرف من ماعون الطب، وإن أراد الاستدلال على نعم الله مال إلى الإنسان ولجأ إلى علْمَي التشريح ووظائف الأعضاء؛ حتى إنه انتوى إفراد مؤلَّف لذلك يسمّيه عجائب صنع الله، ولو أحصينا كلمات الطب والطبيب والمرض والصحة والدواء في جملة موسوعته الشهيرة "إحياء علوم الدين" مثلا، لبلغَت عدّة مئات، ومعروف أنّ مَن أحبّ شيئا أكثر من ذِكره، ومن مال إلى وعاء لن يملّ الغرْف منه، ولو مضينا في الافتراض واخترْنا له أحد المساقات والتخصصات الطبية العصريّة، لكان الطب النفسي أليق به وأجدر؛ واقرأ مثلا هذا التشبيه الدقيق الذي خلط فيه الطب بالفقه فقال: "مَثل الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين، كمَن به علّة البواسير، وهو مشرِف على الهلاك، فاشتغل بتعلُّم أدواء الاستحاضة، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يُستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علّة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك؟!"..

وأكثر من ذلك، تجده يجعل تعلّم الطب في مرتبة تعلّم الفقه والفتوى، ويحثّ على الاشتغال به بحسبانه ممّا لا يَستغني عنه المجتمع المسلم، فيقول في الإحياء:

« كم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع؛ فليت شعري: كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟!»

ومن بين صفاته الخُلُقية وفضائله الروحية المجمَع عليها؛ يبرز الذكاء والعبقرية، والهمّة الشريفة الرفيعة، والعاطفة الإيمانية الدافقة، وسرعة البديهة، وطول النفَس في التأليف، وملَكة الحِجاج والتناظُر الفكري، و يبقى الإخلاص مفتاح السرّ وكلمة الفصل؛ تلمس ذلك من تفتيشه الدائم في نيّةٍ يبيّتها قبل الشروع في العمل، وأخرى يضمرها أثناء مزاولته له، وثالثة عقب الفراغ منه، فيقول: "طلبْنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلّا لله"، ويحذّر من الرياء فيقول: "كُن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الركون إلى الحمْد بعد الشروع بالإخلاص، فإن ذلك ممّا يَكثر جدّا"، ثمّ يفرد له كتابا خاصا هو الكتاب السابع في ربع المنجيات، وبينما هو على فراش الموت يجود بآخِر أنفاسه؛ إذ به يُوصِي مَن حوله قائلا بلسان الحال والمقال: "عليكم بالإخلاص".

ولأنّ الإخلاص أصله استواء الظاهر والباطن ومطابَقة الحال للمقال وموافقة السرّ للعلن، ولأنه رتبة عظمى لا ينالها إلّا الأولياء ذوي القربى، فقد عُرف بهذه الرتبة بين كبار الصوفيّة حتى شهد له أبو العباس المرسي بالصدِّيقيّة العظمى، وهو بها حقيق، ولا نزكِّي على الله أحدا، وإلى هذا الإخلاص أشار الإمام الذهبي أيضا في سِيَر الأعلام بقوله: "لولا أنّ أبا حامد من الأذكياء وخيار المخلصين لتلِف".

وعن لحظة الوفاة التي حانت في الرابع عشر من جمادَى الآخِرة عام ٥٠٥هـ الموافق ديسمبر ١١١١ميلادية، واختصرَت جولةَ حياته ودلّلت بوضوح على روحانيّته ورَبّانيّته؛ روى ابن الجوزي في كتابه (الثبات عند المات)، نقلا عن الشقيق الأكبر أحمد الغزالي: "لـمـّا كان يوم الاثنين، وقت الصبح، توضّأ أخي أبو حامد وصلّى، ثم قال: عليّ بالكفن، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه قائلا: سمعًا وطاعةً للدخول على المِلك، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار".

وسبحان مَن قصّر حبل أعمار بعض الناس لحكمة، وأرخى عنانه في آخَرين لحكمة، وكم من حِكَم لله خافية وفي علم الله ثاوية؛ فبينما عمّر الأئمّة الكبار مالك وأبو حنيفة وابن حنبل وابن الجوزيّ بين السبعين والثمانين، نجد الإمام – كمثل: الشافعي، والنووي، والجويني، وابن القيّم رحمهم الله – يغادرنا سريعا عن بضع وخمسين عاما! رغم أن أخاه الوحيد وُلد قبله بعدّة سنوات وعمّر بعده خمسة عشر عاما، ولكنّها برَكة العمر التي تطيل أمده وإن قصر، والزهد في الدنيا والشوق إلى الآخرة والإقبال على الله الذي ربّما عجّل لعمره بالانقضاء ولحياته بالانتهاء وسرعة الزوال، وفوق كلّ ذي علم عليم.

وبينما دمّر الهمج من المغول القبرَ واندثرت معالمه أثناء حملتهم الفاشية الدموية على العالم الإسلامي – في وسط آسيا الزاهر آنذاك بالمعرفة والحضارة –، فقد أُعيد اكتشافه عام ١٩٩٥م في مدينة طوس الأثرية بمحافظة خراسان شمال شرق إيران، وأمر الرئيس التركي رجب طيب أردوجان بإعماره عام ٢٠٠٩ أثناء زيارته لطهران، ورغم أنه يعاني الآن الإهمال وسط مطالبات عدّة بترميمه؛ إلّا أن أفواج الزوّار تتوافد عليه من بقاع العالم الإسلامي، خاصة تركيا وباكستان، وبالطبع العشرون مليونا من أهل السنّة في إيران والذين يحتفون بإمامهم وفخرهم ويحيون ذكرى وفاته بانتظام في التاسع عشر من ديسمبر من كلّ عام.

وكان – طيّب الله ثراه– قد وُلد في منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) زمن الدولة السلجوقية الكائنة تحت ظلّ عصر عباسي ثالث مال إلى الضعف والانحلال، وذلك في قرية غزالة[١] التابعة لمدينة طوس، وإليها أو إلى مهنة أبيه في غزل الصوف وبيعه، نُسب واشتُهر بالغزالي أو الغزّالي، بينما توارى اسمُه السابح في بحر الحمْد والحامل للوائه؛ فهو محمّد وأبوه محمّد وجدّه الأوّل محمّد أيضا!

ليس هذا فحسب؛ فجدّه الثاني أحمد، وأخوه الأكبر أحمد، وابنه الوحيد الذي غادر الدنيا سريعا وكُنِّي به هو حامد! وربّما امتدّ ذلك الحمد إلى أسماء بناته الستّ اللائي لا ندري عنهنّ شرْو نقير!

وذاق في غضاضة طفولته ـ كأكثر النوابغ ـ مرارةَ اليُتم المركَّب إثر وفاة أمّه[٢] وأبيه؛ ذلك الرجل الفقير الصالح الذي استودعه مع أخيه؛ صديقًا له من أهل البرّ والتقوى، ونصّبه أبًا معنويا يخلفه كأب بيولوجي، ثمّ وصّاه قائلا: "إن لي تأسُّفا عظيما على تعلّم الخطّ، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدَيّ هذيْن، فعلِّمهما، ولا عليك أن ينفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما"، ويا لها من وصيّة دالّة، فرغم أمّيّة الرجل ومسغبته، إلّا أنه لم يجد أفضل من العلم حارسا لهما وضامنا لمستقبلهما، ويكأنه يحفظ قول أبي الحسن رضي الله عنه:

"ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُه ... إنّ اليتيمَ يتيمُ العلمِ والأدبِ"

(١) من الموافقات العجيبة، وجود قرية بنفس الاسم تبعد عن قريتي بضع كيلومترات وهي قرية غزالة التابعة لمركز السنبلاوين محافظة الدقهلية، كما توجد عائلة كبيرة هي عائلة الغزالي في قريتي كفر الروك، بل هم جيراني وبعض أنسابي.

(٢) في توقيت وفاة أمّه خلاف، إذ يرى بعض المؤرخين أنها لم تمت في صغره بل عاشت وعُمّرت حتى رأت بزوغ بعض نجمه.

ونظرا لنفاد المال وضيق ذات يد الوصيّ الرقيق الحال، والذي قام مقام الوالد باقتدار وأدّى الأمانة خير أداء؛ اضطُر الصّبِيّان إلى الالتحاق بما يشبه المدارس الداخلية في أيامنا هذه، والتي توفّر السكن والطعام واللباس إلى جانب العلم، وهذه كانت قليلة، والالتحاق بها ليس سهلا، بل إن النظام المدرسي التعليمي بأبنيته المنفصلة عن المسجد والمتعارَف عليه حاليا، كان في طور التدشين وحديث عهد بالمجتمع المسلم ويُؤرَّخ له بمنتصف القرن الرابع الهجري زمانا وبالشرق الإسلامي مكانا، هذا على أفضل التقديرات.

ومن خلال هذه المدارس، واصل الإمام الهُمام تعليمه في جرجان بعد طوس، فأمضى بها عامين، وعند عودته إلى طوس تلقّى أحدّ أهمّ الدروس في حياته من أرعن قاطع طريق، نعم قاطع طريق، فالحكمة قد تجري على أفواه المجانين، والجواهر أكثرها مدفون وسط الصخور.. إذ استولى اللصوص على حقيبته المكتظّة بأوراق سوّدها بفوائد وتعليقات جمّة استفادها من شيوخه الجرجانيين، ولمّا عَظُم عليه أمرها وحزّ في نفسه فقدها، راح يستجدي كبيرهم قائلا: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردّ عليّ تعليقتي، فما هي بشيء تنتفعون به، إنما هي كتب في مخلاة هاجرْت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها؛ وعندها قهقه هذا الكبير وقذف بالأوراق في وجهه قائلا: "كيف تدّعي أنك عرفْت علمها وقد أخذناها منك فتجرّدْت من معرفتها وبقيت بلا علم"؛ وعلى أثر ذلك راح يثق بما في محفوظه أكثر ممّا في أوراقه، وانقطع زمنا لاستظهار ما لديه حتى لا يظلّ أسير إرادةٍ عمياء من جاهل العقل والقلب كلّ بضاعته مُدْية حادّة يقطع بها طريق الغادي والرائح.

وببلوغ سنّ التاسعة عشرة، وهي السنّ الفارقة التي ينتقل بموجبها الطالب في أيامنا هذه إلى الجامعة، وبعدما استنفد خزائن العلم في المدينتيْن طوس وجرجان، ارتحل إلى المدرسة النظامية في قلعة العلم بخراسان أو بلاد ما وراء النهر كما تُلقَّب،

وهي نيسابور عاصمة الدولة السلجوقية ودرّة التاج بعد بغداد آنذاك، وذلك جريًا على عادة ذوي الهمم في النزوح طلبًا للعلم، وتلك كانت محطّته الذهبيّة في المثول بين يدَي ضياء الدين أبي المعالي الجويني "إمام الحرميْن"، ووارث المدرسة الأشعرية بعد المؤسّس أبي الحسن، فدرس على يديْه الفقه والأصول والمنطق والجدل، وكان له بمثابة جامعة هاجت فيها أمواج قريحته فأغرقَت ساحل أقرانه، وصار موضع ثقة شيخه وقرّة عينه، حتى اصطفاه إلى جواره، وبات ساعده الأيمن عند الحضور ونائبه عند الغياب، وضَرب به المثَل في النجابة فقال: "الغزالي بحر مغدِق". وتلك هي الفترة التي تزوّج فيها أيضا وأنجب.

وفَوْر وفاة الإمام الجويني عام ٤٨٧هـ/ ١٠٨٥م، لحق ببلاط الوزير السلجوقي نظام الـمُلك صاحب المدارس النظامية التي هيّأ لها الأسباب وفرّقها كالمنارات في الأمصار، مدّخِرًا سنامها وأيقونتها لعاصمة الخلافة بغداد، والتي توازي اليوم جامعة الأزهر العريقة، وإليها أَوْفد أبا حامد عام ٤٨٤هـ لينال ما يستحقّه من إكرام وإجلال. وعلى بابها تزاحمَت العمائم من شتّى البقاع؛ يطلبون الغزالي صاحب اللسان البليغ الفصيح، والتخريجات الدقيقة اللطيفة، والردود الـمُفحِمة الـمُسكِتة، والمناظرات التي تهبّ على الخصوم بلا هوادة كعاصفة، حتى ضمّت حلقة درسه نحو أربعمائة عمامة لا يطرف لها جفن ولا يفوتها سماع دبيب النمل، بينهم: صاحب الفنون ابن عقيل الحنبلي، وشيخ حنابلة عصره أبو الخطّاب الكَلْوَذَاني. وبهذا حاز المجدَ بكامله وهو دون سنّ الأربعين! سواء من جهة الثراء وليونة العيش، أو المكانة لدى دار الخلافة[1]، أو الشهرة بين العلماء؛ إذ صار إمام العراق بعد حيازته لإمامة خراسان، وذاعت تصانيفه بين النسّاخ، وبات قبلة الإفتاء والفصل في الأحكام، إلى أن حدث زلزال عام ٤٨٨هـ.

(١) عاصر الإمام ثلاثة من الخلفاء العباسيين: القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ)، والمقتدِي بالله (٤٦٧-٤٨٧هـ)، والمستظهِر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ).

وما الزلزال سوى خلوة وعزلة أشبه بانقلاب حادّ ومفترق طريق وانعطافة كبرى، وجاء وليد وقفة صادقة ومكاشفة صريحة، رجح فيها الزهد والتنسُّك، وغلب فيها المعادُ المعاش، بعدما زكّاه وأشعل فتيله أحداثٌ عدّة فتلت حبْلَ عزيمته؛ كتلك الفوضى الفكرية التي أعادت إلى الأذهان جدل بيزنطة وسفسطة اليونان، والتشنّج المذهبي بين المعتزلة والأشاعرة من جهة وبين الفقهاء والمتصوّفة من جهة؛ وانعكاسه على الدّين الذي فقد الروح وبات عقلانيا أكثر منه قلبيّا وأكاديميا مدرسيّا أكثر منه روحانيّا عمليّا، مع جوّ من الرعب أشاعته الفرقة الإسماعيلية الباطنية ضمن كيدها للخلافة العباسيّة ورأس حربتها من السلاجقة الذين أزاحوا حلفاءَهم البويهيين من كرسي القيادة.

أضف إلى ذلك وفاةَ ولده الوحيد حامد عقب مولده بقليل، ودأْبَ أخيه الأكبر وكنْيته أبو الفتوح، على تعهّده بالنصح راجيا منه التخفُّف من وعثاء الدنيا، والإعراض عن فتنه العزّ ورغد المعيشة وكثرة المتاع، ويُقبِل عوضا عن ذلك على علم اليقين وسلوك طريق العرفان علما وعملا وتعليما وتصنيفا، خاصة بعدما صار الـمُجادِل المتكلّم وسط العوام مفتيا والقاصّ الـمُزخرِف كلامه بالعبارات المسجَعة فوق المنابر عالما!

وعن السبب الرئيس وراء عزلته، نقرأ في كتابه (المنقذ من الضلال) أو الاعترافات كما يسمّيه البعض: "ثم لاحظْت أحوالي، فإذا أنا منغمِس في العلائق وقد أحدقَت بي من الجوانب، ولاحظْت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمّة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكّرْت في نيّتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحرّكها طلب الجاه وانتشار الصيت؛ فتيّقنْت أنّي على شفا جُرُف هار، وأني قد أشْفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال..

وهنا نعود إلى الإخلاص، فإيّاك ثمّ إيّاك أخي النابه أن تفهم من كلماته تلك أن نيّته ـ حاشاه ـ كانت مدخولة بالكُلّية، أو أنه ـ حاشاه ـ كان عالِما انتهازيّا وصوليّا كبهلوانات اليوم الراقصة على طبل المال ومزمار الجاه وناي السلطان، غاية ما هنا لك ـ والسرائر علمها عند ربّي في كتاب ـ أنه ارتأى في نيّته بعض الشوائب التي لا يخلُو منها عالم بارز ووجيه شهير، وعَدّ ذلك كبيرة تنسف العمل وتحبطه، فأرادها خالصة مجرَّدَة، ولم يرتضيها إلّا صافية بيضاء كبياض الثلج، لِلّه مِن أَلِفِها إلى يائها، ليس فيها مثقال ذرّة من حظّ النفس، بمعنى أنه طلب الكمال في الإخلاص، والرتبة الأعلى في الصدق، مع أنّ الإخلاصَ كالإنصاف عزيزٌ وعسير، فما بالك بالكمال فيه! وهذا هو الإخلاص المطلَق الذي لا يبتغي عليه أجرا عاجلا في الدنيا، ولا آجلا في الآخرة حتى لو كان جنّة نعيم، إنّما يريد القربى من الله ولذّة النظر إلى وجهه الكريم فقط ، وذلك إخلاص الصِّدّيقين كما سمّاه في الإحياء، وفيه وحده النجاة من خطر عناه قول القائل: كلّ الناس هلْكَى إلّا العالِـمون، وكلّ العالمون هلْكَى إلّا العاملون، وكلّ العاملون هلْكى إلّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وعلى قدر خطورة قرار العزلة؛ كانت معاناته النفسية والجسدية التي كابدها في سبيل حسم هذا القرار؛ إلى الحدّ الذي ظنّ به الناس الظنون، وتوافد عليه الأطباء يحسبونه فريسة لمرض عضال، إذ بقي متردّدا بين الإقدام والإحجام لستّة أشهر، إلى أن يسّر الله له سبل الحزْم والجزْم، وعقد العزم على الكرّ دون فرّ؛ فأناب أخاه مكانه في التدريس، وهو الواعظ صاحب التصانيف ولكن طغت عليه شهرة الإمام وظلمه دون قصد. ثمّ أشاع بين المحيطين أنه مرتحل للحجّ، وفرّق ما عنده من مال على الفقراء وكأنّ ذلك آخر عهده بالحياة، ولم يُبقِي سوى ما يبلّغه مقصده ويقيم أود زوجته وبناته. وهكذا لم يَعُد له في الدنيا أرب، بعدما

وضعها دبر أذنيْه وأسقطها من عينيْه، ثمّ شرع يتنعّم بخلوته متخفِّيا عن العيون في خشن الثياب وشظف العيش لأحد عشر عاما كانت له حرزا من الشيطان، وفتْحا من الرحمن، ووادِيًا كلّه زرع وماء وروْح وريْحان.

والحقّ أن خلْوته جاءت في زمانها ومكانها؛ فمن حيث الزمان: جاءت عقب علم وفقه، ولا تليق العزلة سوى بعالِم، وإلّا فيم سيتفكّر؟ وبم سيتأمّل؟ كما أنّ هذا العلم الذي وقر في القلب والعَقل، لا شكّ يعصم المعتزِل من الأوهام والخيالات وفاسد الخواطر، ومن حيث المكان: اختار لها أشرف البقاع وأكرمها؛ الحرميْن الشريفين، ومسجد الصخرة بالقدس، ومنارة الجامع الأموي بدمشق، وتلك بقاع لا يخفَى على مسلم شرف مكانتها وبركة مكانها، وقِيل ـ وإن كان بصيغة الشكّ والتضعيف ـ أنه رحمه الله طاف أيضا بمهبط الأولياء في القاهرة والاسكندرية حيث أرض الكنانة مصر.

وأجدر بنا؛ أن نسمّي هذه العزلة: تجربة روحية مكتمِلة، وسفرا إلى الله قاصدا؛ لماذا؟ لأنه ارتحل فيها داخليا بقطع العلائق مع عالِم أرضيّ ثقيل كثيف صاخب، واستشرفَت نفسه عالما علويا شفيفا لطيفا، كما ارتحَل خارجيا بمفارقة أماكن شتّى ألفها على مدار أربعين عاما وانطبعت على جلده كطبقة رابعة لم يتردّد في خلعها واحتمال ألم الانسلاخ منها، وبهذا حُقّ له أن يُخلق من جديد؛ إذ أثمرَت هذه العزلة ضمن ما أثمرَت غزاليًّا ثانيا، سواءً في فكره وسلوكه، أو في تدريسه وتصنيفه؛ فشرع بعد العودة يدرّس لطلّابه في المدرسة النظامية بنيسابور الزهدَ والتواضع، ويحذّرهم البروز وطول الأمل، ويدلّهم على طريق مجاهدة النفس ودحْر الشيطان، ويمنعهم من غشيان أبواب السلاطين؛ إذ كانت نيّته التي بيّتها لدى العودة القصيرة إلى التدريس ـ تحت ضغطٍ وإلحاح من الوزير فخر الـمُلْك ابن نظام الـمُلْك ـ هداية الشُّداة وإفادة القاصدِين؛ اللذيْن

اغتالتهما اليد الباطنيّة الآثمة، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرّر عن رِقِّه من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين.

هذا قبل أن يفيئ بعد عام واحد إلى طوس، ويعكف في مسجده على الصلاة والصيام وختْم القرآن، مع الاستئناس بمجالسة أرباب القلوب في رباط صوفيّ أنشأه، ومدارسة نحو مائة وخمسين من طلّاب العلم المريدين، إلى جانب إعالة أسرته من ضُيَيْعة تسدّ رمقهم؛ بعد المبالغة في الاقتصاد والقناعة، إذ كان قد قطع على نفسه عهدا في عزلته الكبرى، وأشهد عليه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، وجعله من ثلاثة بنود: ألّا يقبل مالًا من سلطان، ولا يخرج للسلام عليه، ولا يناظِر.

وفي ذلك السطر الوداعي الأخير من صفحة حياته، راح يتدارك ما فاته من علم الحديث، فانكبّ على الصحيحيْن، البخاري ومسلم، انكباب الباحث المدقّق المحقّق المجتهد، ولو طال به الزمن قليلا لقال في علم الحديث كلمة باقية وحاز فيه قدم صدق وصنّف ما يَجُبّ قوْلته عن نفسه بأن بضاعته في الحديث مزجاة.

وبعد.. فتلك سطور قليلة عن سيرة إمام هي أَضْوأ من شمس الظهيرة وأَسطع من بدر التمام، ترجم له الكثيرون، وطافوا حول سيرته طوفان الحجيج حول الكعبة المشرّفة، ويظلّ أطولهم باعا في هذا المضمار هو عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي واعظ نيسابور ومحدّثها، بحسبانه عاصر الإمامَ من المهد إلى اللحد؛ إذ وُلد بعده بعام وتُوفِّي بعده بربع قرن تقريبا (٤٥١-٥٢٩هـ)، وبحسبانه زاره وجالسه وحادثه مرّات عديدة، وبهذا تَوفّر فيه كمترجِم؛ شروط المعاصرة والمعايشة والأمانة، وباتت كلّ الترجمات عالة على ترجمته.. وفيها وصفه بأنه "إمام أئمة الدّين، لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ونطقا وخاطرا وذكاء وطبعا"، ونعته الإمام الذهبي بالشيخ الإمام البحر وجعله أعجوبة الزمان؛ وتجد مثل هذا الثناء في كلام الكثير من المتقدّمين: كتلميذه الشهير القاضي المالكي أبو بكر بن العربي، الذي وصفه بالتاج في هامة الليالي، وشهد ببلوغه الذروة في

العلم والمعرفة وقال عنه: "كان رجلا إذا عاينْتَه رأيت حالا ظاهرا، وإذا عالـمْته وجدت بحرا زاخرا".

وبين المعاصرين، نجد العقّاد قد وضع في قائمة أمنياته تحبير كتاب عنه، كعبقرية عقلية قلّ التاريخ أن يجود بها، ولكن يبدو أن الزمن لم يسعفه، واكتفى منه بمحاضرة في رحاب الجامع الأزهر قبل ثلثَي قرن تقريبا، ساقها تحت عنوان (فلسفة الغزالي)، وطبعتْها مؤسّسة هنداوي في كتيّب صغير، أقتطِف منها قوله: "رحم الله أبا حامد، ما أبعَد نظره! وما أوسع رحابه! وما أقدره على الفرض المحتمَل! بل على الفرض الصحيح الذي أثبته العلم بعده، وسبق هو شأو العلم فرآه في أطوائه بعين البديهة الصادقة والفهم النافذ واللبّ الرجيح!.. وبادي الرأي أنّ العقّاد بالمدح ضنين، وإن مدح لا يمدح إلّا جبابرة العقل، وشهادته تلك هي شهادة مؤطّرة تقرّ بحيويّة العقلية الغزاليّة واستيعابها لمستجدّات العصر؛ رغم تطوّر مناهج التفكير ومدارس النقد.

ولا عجَب أن تتسابق أقلام الباحثين من طلّاب الماجستير والدكتوراه على تناول شخصيته؛ تارة من ناحية الفكر الاجتماعي الإسلامي، وتارة من جهة التربية النفسية، وأخرى من جهة العقلية النقدية وجهودها في حركة الإصلاح والتجديد. وقد جسّد شخصيته الإعلام المرئيّ في مسلسل من بضع وثلاثين حلقة، وسرَدها في فيلم وثائقي مطوَّل تحت عنوان جذّاب اقتبسه من كتاب "كيمياء السعادة"؛ وهي الكيمياء التي لا تكون إلّا في خزائن الله سبحانه، ولا تُطلَب من غير حضرة النبوّة، ومقصودها التعرِّي من كلّ صفات النقص والتحلِّي بكل صفات الكمال، وذلك على حدّ قوله رضي الله عنه.

كما لا عجَب أن تتزيّن المدارس ومنابر البحث في الجامعات وكذلك الجمعيات والشوارع، فتتسمّى باسمه، وذلك في طول البلاد الإسلامية وعرضها، بل إنّ الثقافة الأوروبية تأثّرت إلى حدّ بعيد بفكره الفلسفي؛ حتى قيل: إن فلسفة

الشكّ المنهجي عند كبيرهم رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) مستوحاة من أطروحاته، ولكن العنجهيّة الغربية تأبى الاعتراف وتدمن الإنكار.

وشتّان بين شكّ ديكارت الذي وقف عند عتبة العقل وارتضاه مرفأً، وبين شكّ الغزالي الذي انتابه في بدء حياته العلمية باحثا عن أدوات المعرفة اليقينية، فتحرّر من قيد التبعيّة والتقليد، وجاوز الحواس والعقل إلى القلب الذي ارتضاه إماما، دون نفْي العقل والحواس كمدخَلات معرفية معتبَرة على ما بها من نقصان؛ بمعنى أنهما اشتركا إلى حدّ ما في البدايات ولكنهما افترقا في النهايات، ومَن يساوي بينهما كمَن يساوي بين الحدّادين والملائكة حسب تعبير الإمام الدارج على سنّ قلمه في الإحياء. ولا عجب، إذ افتقر ديكارت إلى ما حبا الله به الإمام من نور سماوي اطمأنّ به قلبه ووقف بموجبه على أرضية راسخة من هدْي القرآن والسنّة، وسبحانه ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

ونلحظه في أدبياتنا الإسلامية بات رمزًا للبحث عن الحقيقة الإيمانية، وعنوانا على التجرّد والمثابرة في سبيل الوصول إليها، حتى أصبح كلّ مَن يسلك هذا النهج غزاليّ الظاهرة واللّقب، وهو شرف عظيم ورفيع؛ فنجد الطبيب والمفكّر مصطفى محمود (١٩٢١-٢٠٠٩) في رحلته للعبور من لجّة الشكّ إلى مرفأ اليقين وحاديه في ذلك كتاب إحياء علوم الدين ، يلقَّب بغزاليّ القرن العشرين، كما نجد الفيلسوف طه عبد الرحمن (١٩٤٤-) الذي جمع بين المعرفة العقلية عبر دراسة المنطق، والمعرفة الروحية عبر التصوّف، ورفع شعار: الأخلاق هي الحلّ، يُلقَّب بغزاليّ المغرب.

ولله دَرّ إمامنا في ألقاب كُثُر كالليث، حازها عن جدارة واستحقاق؛ فهو حُجّة الإسلام، وزين الدّين، ومَحجّة الدِّين، والعالم الأوحد، ومفتي الأمّة، وبرَكة الأنام، وإمام أئمة الدّين، وشرف الأئمّة.. وصدق مَن صدّر إحدى الترجمات[٢] بقوله:

(١) النور ٤٦

(٢) كتاب "الغوّاص واللآلئ، مسلم باحث عن الله"، للمستشرق والمنصّر الأمريكي صمويل زويمر.

"إذا رُمْتَ الحصولَ على اللآلي وإحـرازَ الـمفاخرَ والـمعالي
بترجمةٍ حوَت مـن كـلّ فضلٍ عليـك بقصّـة الشـيخ الغـزالي"

وقال آخَر:

"هيهات لا يأتي الزمان بمثله
إنّ الـزمـانَ بمثلـه لشحيـح"

ويبرز لقب حُجّة الإسلام ـ من بين هذه الحزمة من الألقاب ـ ويكفي أن تذكره مجرّدا؛ ليتبادر الإمام الغزالي فورا إلى ذهن المستمِع، تماما كما يتبادر الإمام مالك بن أنس إذا قيل إمام دار الهجرة، والإمام الطبري إذا قيل شيخ المفسّرين، والإمام ابن تيمية إذا قيل شيخ الإسلام، والإمام الشعراوي إذا قيل إمام الدعاة ـ وهو لقب متفرّد وُلد في مجلس الحكم الذي تصدّره الوزير السلجوقي الصالح نظام المُلك، ويحمل في طيّاته أسمى آيات التقدير ومنتَهى التبجيل، ويدلّ على غزارة العلم، وسداد المنطق، وعمق التناول؛ بحيث إذا تكلّم جاء بالدليل الساطع، واستوفى الموضوع استيفاء، وبات كلامه حجّة بلا معقِّب، ومرجِعا موثوقا يُعتدّ به ويُحال عليه.

أمّا لقب المجدّد الذي انضم بموجبه إلى قافلة المجدّدين الأوائل: الخليفة عمر بن عبد العزيز مجدّدا للمائة الأولى، والإمام الشافعي مجدّدا للمائة الثانية، والإمام أبو الحسن الأشعري مجدّدا للمائة الثالثة، والإمام الباقلاني مجدّدا للمائة الرابعة.. فكان لاجتهاده فيما استجدّ، والفصل فيما أُشكِل على أهل زمانه من تيارات ومذاهب دينية عدّة ادّعى كلٌّ منها أنه الحقّ الأبْلج وما عداه باطل لجْلج، وما أشبهه آنئذ بسراج وسط العتمة وسفينة نوح وسط الطوفان، وإلى هذا أشار صاحب المنار (رشيد رضا) بقوله: "وحجّة الإسلام أبو حامد الغزالي مجدّد أواخر القرن الخامس

وأوّل السادس لِـمَا شَبْرَقَت[1] نزعات الفلاسفة وزندقة الباطنية"؛ ولهذا لم يجد أمير دولة المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٧٦-٥٣٧هـ) خيرا منه ليستفتيه في عبور البحر إلى الأندلس وإنقاذ الدولة الأموية المفكّكة، وهي فتوى مباركة كانت سببا في مدّ عمر الدولة الإسلامية هناك لأربعة قرون إضافية بعدما كانت على مرمى حجَر من السقوط بين أنياب الفرنجة المتربّصين على حدودها.

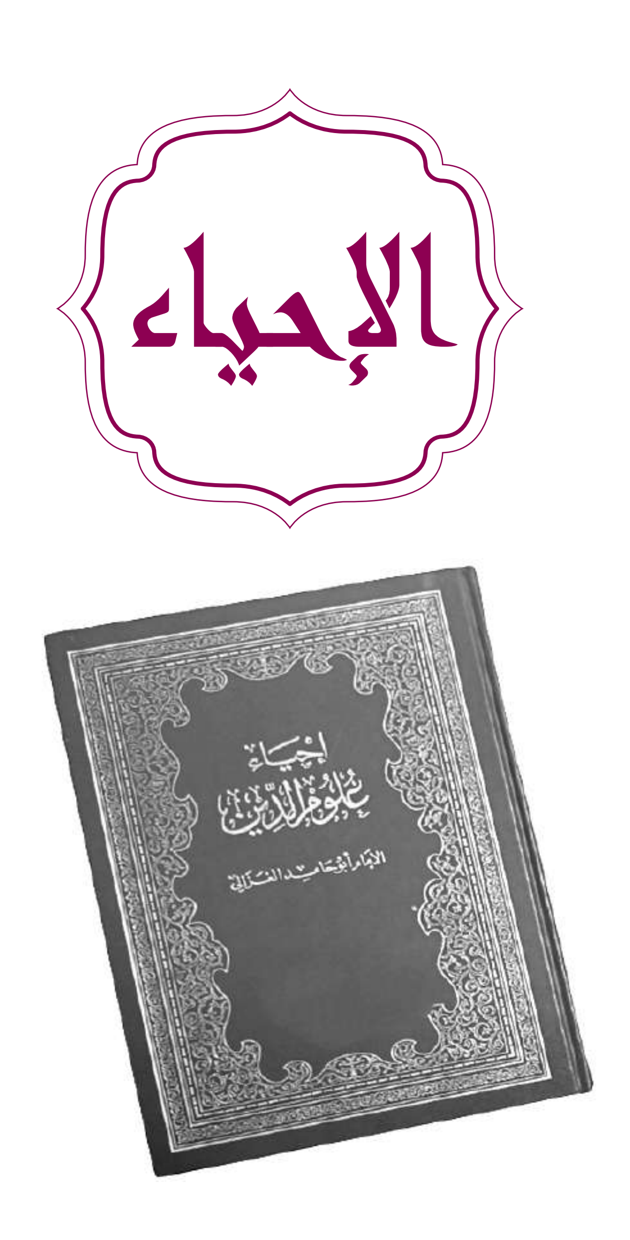
والحقّ أنه كان كارها للألقاب زاهدا فيها، بل حمل على أصحابها، وودّ لو أراق عليها دلو ماء ومحاها محو الليل للنهار، واقرأ في ذلك رسالته لرأس الدولة السلجوقية الوزير فخر الـمُلك قائلا: "الأمير، والحسام، والنِّظام، وما أشبه ذلك كلّه من الألقاب والخطاب وجملة الرسوم والتكلُّف! وفهْم معنى الأمير وطلَب حقيقته أهمّ، فكلّ مَن كان ظاهره وباطنه متلبِّسا بمعنى الأمير فهو أمير ولو لم يناده أحدٌ بالإمارة، وكل مَن هو عارٍ عن هذا المعنى فهو أسير ولو خاطبه العالَمون بالأمير".

وكما يُعرف المرء بنفسه، فإنه يُعرف أيضا بأقرانه وبشيوخه وبتلاميذه، على طريقة: قُل لي مَن تصاحب أقل لك مَن أنت، وعلى قول الشاعر: "مَن خالط العطّار نال من طِيبه"، وفي هذا سرَد العلّامة الزَّبيدي في شرحه للإحياء، عشرات من هؤلاء التلاميذ الذين جلسوا بين يديه ثمّ حملوا الراية الغزالية بعده، فأصبحوا أعلامًا بارزين في مختلف العلوم والفنون، وباتوا من أصحاب التصانيف، وتولّوا مناصب عالية في التدريس والقضاء والإفتاء.

سقى الله روحَ الإمام بالرحمات، وآنس وحدته تحت التراب، وأنار قبره ورفع قدره بجبال من حسنات لا شكّ يجنيها كلّ صباح من وراء عِلم شريف يُنتفع به إلى يوم الحساب، والحمد لله المنّان، والصلاة والسلام على النبيّ العدنان.

***

(١) شبْرقَت: أي مزّقت وأفسدَت، ويُقال ثوب مُشبرَق: أي ممزّق فاسد النسج.


الإحياء
إحياء
علوم الدين
الإمام أبو حامد الغزالي

للعرب ديوان يُسمَّى الشِّعر، وللمسلمين ديوان يُسمَّى المسجد، وللأخلاق ديوان يُسمَّى "إحياء علوم الدين". وكما للشيطان حانوت نسمّيه الدنيا، فإنّ للآخِرة حانوتا هو ذلكم الكتاب الذي فُتنْت به في صباي، وأبى أن يغادره عقلي وقلبي، فمضيت أتفيّأ ظلاله شابّا ثم كهْلا، ليرقّ القلب في رحابه حتى كالطير يرفّ، وتسخن العين حتى بالدمع تسيل، وما ذلك إلّا لِما زخر به من حِكَم ومواعظ ومعارف رسمَت له لوحة بهيّة فيها من برد الندى ورقّة الماء كثير شبه، وبها من نقاء الغمام وعذوبة الشهد ما شهد به القاصي والداني، حقيقةً لا مجازا، وتحقيقًا لا تعليقا.

وكما أن لكلّ إنسان سيرة ومسيرة، نعرف منها متى وأين وُلد؟ ولماذا وكيف على ساقه استوى؟ فإنّ لهذا الكتاب سيرة استثنائية حافلة، يروي طرفها الإمامُ الغزالي بقوله: "لـمّا كان عِلم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ممّا سمّاه الله سبحانه في كتابه: فقها، وحكمة، وعلما، وضياء، ونورا، وهداية، ورشدا ـ قد أصبح بين الخلق مطويا وصار نسْيا منْسيّا، ولـمّا كان هذا ثلْما في الدِّين مُلِمّا وخطْبا مُدلهِمّا؛ رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب؛ إحياءً لعلوم الدّين، وكشفا عن مناهج الأئمّة المتقدّمين، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيِّين والسلف الصالِحين". ثمّ عدّد ما تفرّد به الكتاب، على قاعدة: مَن لم يأتِ بجديد فقد خالف أصول التأليف، فقال – رحمه الله – بلسان العدل والإنصاف: "ولقد صُنِّف في بعض هذه المعاني كُتبٌ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور: حلّ ما عقدوه وكشْف ما أجملوه، وترتيب ما بدّدوه ونظْم ما فرّقوه، وإيجاز ما طوّلوه وضبْط ما قرّروه، وحذْف ما كـرّروه وإثبات ما حرّروه، والخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يُتعرّض لها في الكتب أصلا".

وقد استهلّ تحبيره عام ٤٨٩هـ وسط خلوة هي البيئة الأجمع للفكر، والسبيل الأقصر لاقتناص الحكمة وملامسة سقف اليقين، واستغرق في تأليفه ستّ

سنوات لا يشغله عنه شاغل سوى الذكر والفكر، مرّ خلالها بالقدس والحرميْن الشريفيْن، وأتمّه في أرض الشام المباركة حيث المسجد الأموي العريق. ثمّ شرع يدرّسه لطلّابه ويجيزهم به، ولم تمض سنوات قلائل حتى صار حديث أقلام النسّاخ ودكاكين الورّاقين، وأصبح صدى أسماع طلّاب العلم ومائدة نقاش الصفوة من علماء عصره، حتى مدحه أحدُهم بقوله:

"كتـابٌ جليلٌ لم يُصنَّف قبله ولا بعـده مَثَلٌ لـه في الطرائق

معانيه أصبحت كالبدر سواطعا على دُرّ لفظٍ للمعاني مطابق"

وإذا جاز استنباط أبرز المراجع التي ألقت بأفيائها على مادّة الكتاب، فلن تخرج عن كتب شيخه أبي المعالي الجويني، ومؤلّفات أعلام الصوفية لا سيّما أبي طالب المكّي، والحارث المحاسبي، إلى جانب مأثورات أهل الورع المتقدّمين أمثال: الجنيد، والشبلي، والتستري. علاوة على عقله المتوهّج بالذكاء، وحرارة الصدق ونور الإخلاص الذي تراه باديا في سطور الكتاب؛ وكان السرّ الأعظم وراء قبول متفرّد لاقاه رغم تعاقب الحِقَب وتواتر الأجيال. وانظر إلى أمانته في النقل والتماسه بركة العلم بإرجاع الفضل إلى أهله، حين كتب عن مناقب الإمام الشافعي ثمّ عقّب في المتْن بخط بارز لا في الهامش بخط صغير يرى بالمجهر، قائلا: "وأكثر هذه المناقب، نقلناه من الكتاب الذي صنّفه الشيخ نصر إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه"، ثم أعاد الكَرّة بين يدي الحديث عن الدعاء فقال: "وهذه أدعية مأثورة محذوفة الأسانيد منتَخَبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكّي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله".

وخلافًا لغالب الكتب الشرعية، نراه اتّسم بأسلوب أدبي رائق وديباجة مشرقة وعبارة جزلة، حتى لا تكاد تعثر فيه على لفظة خشنة أو كلمة متقعّرة أو قوْلة على الفهم عويصة، بل هو السهل الممتنع ولا ريب، يتساءل وكأنه يحاور

القارئ ويناظره، ثمّ يسترسل بضرْب المثل تلو المثل ليهب الفكرةَ روحًا تمشي بها على قدمين وحرارةً تطوّعها كخاتم في خنصر، ولا ينضب قاموسه الموسوعي عن إيجاد المثل المناسب لكلّ فكرة يطرحها، بل يضرب للفكرة أحيانا أكثر من مثل بعضها أوضح من بعض، مراعاة لاختلاف الأفهام..

انظر مثلا قوله: "ومِن لطائف رياضة النفس: إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا ولم يسمح بضدّه دفعة، فينبغي أن ينقله الشيخ من الخُلق الذميم إلى خلُق مذموم آخر أخفّ منه.. كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم"، واقرأ أيضا قوله: "مَن عليه فرض عين، فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذّاب، ومثاله مَن يترك الصلاة في نفسه، ويتجرّد في تحصيل الثياب ونسْجها ويقول: غرضي أستر عورة مَن يصلي عريانا ولا يجد ثوبا"؛ مع الانتباه إلى قوله رضي الله عنه: "ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم، فلا يُطلب فيها الحقائق".

والحقّ أنّ مَن تنقاد له اللغة للحديث عن الروح بهذه الأريحية، وعن النفْس بهذا العمق، وعن القلب بهذه الدقّة؛ فلا شكّ يمتلك شفافية عالية مع ملَكات خاصة انفتحت على الإلهام والتوفيق والكرامات، ومثَله في ذلك كمَن نسج سحابةً بخيوط من حرير ونظم النجومَ في مسبحة تتناوبها الأنامل، ولا غرْو، فبعض الناس وطنهم مكان، وبعضهم وطنه لغة، ولكن إمام الفقهاء الغزالي وطنه الروح ومسكنه النفس وهدفه القلب، يعرف جيّدا تضاريسهم، ودروبهم، ومداخلهم ومخارجهم، وهو خير مَن يصحبنا إليهم ويدلّنا بالخير عليهم.

وأوّل ما يطالعك في هذا السِّفر الجليل، العنوان، الذي اختير بعناية فائقة؛ ليعبّر عن فحوى الكِتاب وشخص كاتبه؛ فلفظة الإحياء تشير إلى مهمّة ثقيلة العبْء ورسالة عظيمة القدْر لا يقوم بها إلّا عصبة من أُولي العزم، ولكنه وحده

يتصدّى لها واثقًا من نفسه معتدًّا بفكره متوكّلا على مَن بيده أنفاسه وخلجاته، وهو لا يَدّعي إحياء الدّين، فالدّين حيّ لا يموت، بل يُحيي علومَه بإيقاظها من غفوتها، وإزالة الران عنها، وإعادتها إلى الجادّة، فكلّ غافل ميت حتى لو رمش بعينه وأومأ برأسه، وكل مائل عن صراط الله المستقيم ميت حتى لو أكل الطعام ومشى في الأسواق، وكلّ علم لا يقرّبك من الله فهو ميت حتى لو صعد بك إلى القمر وطوى لك بالطائرة بُعد السفَر، وبهذا كان العنوان مختَصَرا ولكن دقيقا ومفتاحيًّا ودالّا، وتلك أهمّ مواصفات العنوان المتفرّد.

وستجد ـ دون عناء بحث ـ أنه سِفرٌ منهجي منظَّم يحترم عقل القارئ ويرفق به، فيبدأ بالكلّيات ويستوفيها، قبل الانتقال إلى الجزئيات وما يليها، وكأنه دوحة باسقة يُسْلمنا جذعُها إلى الأغصان ثمّ إلى الأوراق قبل الثمار؛ بمعنى أنه يحسن الدخول عبر تمهيد لطيف، ويرسّخ للفكرة من خلال تسلسل منطقي مرتَّب بإحكام، ويرمي من وراء ذلك إلى محصول معرفي ثابت كنقْش على حجر، وعرفانيّ مستقِرّ كحَفْر على خشب، ولَعَمري لا تجتمع تلك المنهجية سوى لقلم أَلمعي غُمس في دواة مدادها: مزيج من منطق سديد، وفلسفة راشدة، وتبحُّر في علم الأصول؛ ومَن لتلك الدواة والمداد سوى البحّاثة العلّامة أبي حامد.

ولا يفوتنا الانتباه إلى بنائه المعماري المحكَم، الذي صدّره بالحديث عن العلم، وكأنه يشنّ حربا شعواء على جهل يتسربل به بعض الصوفية، ويؤسّس لعقلية مسلمة واعية جديرة بحمْل أشرف الرسالات وأبقاها على مرّ الزمان، ولهذا علّق الإمام أبو الحسن الشاذلي في مقارنة لطيفة بينه وبين كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكّي فقال: "الإحياء يُورثك العلم والقوت يُورثك النور".

ثمّ نراه ـ رؤية علمية لا رؤية بصرية – يقدّم ربع العبادات على ربع العادات، في رسالة مفادها: إنّ العلاقة مع الله يجب أن تكون في قمّة سلّم الأَوْلويات، وتأتي

بعدها العلاقة مع الناس وما يلزمها من معاملات. وتجده يبني ربع العبادات على أركان الإسلام الخمس التي بدونها ينتفي البنيان، وهي: التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ثمّ يستبق الحديثَ عن المُنجيات بالمُهلِكات، إذ اقتضت الحكمة أن تسبق التخليةُ التحليةَ، تماما كما يسبق البِذْرَ والغرْسَ حرثُ الأرض وتنقيتُها من الأحجار الصلدة والحشائش المتطفّلة، ثمّ يختم رحمه الله الكتابَ بالحديث عن الموت وما بعده، وهي نهاية منطقية وحتمية لكل رحلة، حتى لو كانت رحلة على متن حروف وكلمات وصفحات.

وحَسنا فعل العلّامة القرضاوي رحمه الله حين لفت النظر إلى الجانب الاقتصادي فيه، ونقل عن أحد الاقتصاديين الإسلاميين قوله: "إن أعظم ما كُتب عن النقود ووظائفها في العصور الوسطى، هو ما كتبه عنها الغزالي في كتاب (الشكر) من (الإحياء)، حين تحدّث عن نعمة الله في هدايته الإنسان إلى استخدام النقود (الدراهم والدنانير) بدل نظام المقايضة".

ولو شئنا تصنيفه ضمن المصنّفات الإسلامية، لَمَا جاز إدراجه ضمن كتب العقيدة، أو الفقه، أو الحديث، أو التفسير؛ على ما ضمّه منها ولو بنزْر يسير، ولكن جاز وضعه كمصنَّف جامع في الأخلاق والتربية والسلوك، يخاطب المذنب ليتوب إلى الله، ويفيء جنبا إلى جنب مع المحسن ليرتقي إلى درجات المقرَّبين والصدِّيقين، ولكليْهما وضع منهجا علميا وعمليا مغايرا، لاعتقاده بأن السلوكَ محصّلة العلم مع العمل؛ وأنه ليس قالبا جامدا يستعصي على التغيير بل عجينة لدنة قابلة لإعادة الصياغة والتشكيل.

وبحسن نيّة أو بسوء طويّة، أرى أن البعضَ يظلمه حين يصنّفه ككتابٍ في التصوّف؛ مدلِّلين على ذلك بسريان كثير من مصطلحات التصوّف بين جوانبه: كالحال، والمقام، والكشْف، والمريد، والأوراد، والمجاهدة، والأبدال، والأوتاد،

والأُنس، والوصول، وغيرها، وأراهم بذلك يحجّرون واسعا، ويُلبسون الإحياء ثوبا أقصر من قامته بكثير، إلّا إذا عرّفنا التصوّف بأنه لباب الأخلاق والتربية والتزكية والسلوك، وهو تعريف حقيق، مع توفُّر أرضية صلبة من العقيدة والفقه والحديث والتفسير؛ هي للمتصوّف كالعنوان للمقال والمقدّمة للكتاب؛ ولا غنى له عنها بحال من الأحوال.

وبهذا التصنيف الجامع، لا أعدّه إلّا كليلة القدر بين الليالي، وكيوم الجمعة وسط باقي الأيام، وكيف لا؟ ونحن نرى خيره العميم وبركته العابرة للمئين من السنين؟! فرغم مُضي قرابة الألف عام على تأليفه (٤٩٥-١٤٤٤هـ)، إلّا أنّ أيدي القرّاء مازالت كثمين الدُرّ تتخطّفه، وكالطوْد الشامخ تتزيّن رفوف المكتبات به وتشرُف، وما من دار نشر كبرى إلّا ولها طبعة خاصة تباهي بها، بعضها مزدحمة الصفحات كشوارع دلهي وبكّين مثل: الطبعة الحمراء لدار القلم، والطبعة الخضراء لدار المعرفة في أربعة مجلّدات؛ واللتان كانتا محلّ نظري وقيدي، وبعضها في سطور رحبة رائقة مثل: طبعة دار المنهاج التي جاءت فضفاضة كعباءة في عشرة مجلّدات، ثم اعتصرتها في أربعة مؤخّرا..

وأيًّا كانت الطبعة التي وقعَت عليها عينُك ونزل بها رحْلُك، فأعدك أنّ حرفَها سيظلّ منك قريبا كحبل الوريد، يعزف على وترك، ويرى بعين بصرك، وينبض بدم عروقك، حتى لينتابك الشعور بأنه كُتب لك خصيصا، يُطعمك بما تصحّ به وتقوى، ويرويك بما يشدّ أزرك ويُنبت بيانع الثمر زرعَك، كما يداويك بما يشفيك ويعيدك إلى حضن العافية غانما سالما من أقصر درب وأسرع سبيل، وهذا دأب الكُتب الرفيعة المقام، الشريفة النسَب، حلوة الشمائل؛ التي ينفتح لها القلب، وينشرح الصدر، وتُقبل عليها النفسُ مادّة ذراعيها كتائه عثر على ضالّته بعد طول غياب..

وقد تَناوب عليه الشرّاح تارة في مجلّدات تُقرأ، وتارة عبر مرئيات تُبصَر وتُسمَع، واختصره البعضُ فهذّبه وحقّقه وخرّج له بغْية تقريبه وعلى طبق من الفضة تقديمه، واقرأ في ذلك: أطول شروحه (إتحاف السادة المتّقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) الكائن في عشرة مجلدات والمذيَّل بتوقيع العلّامة الزَّبيدي، وتهذيبه على يد ابن الجوزي في القرن السادس الهجري تحت عنوان "منهاج القاصدين"، وتخريج الحافظ العراقي لأحاديثه، ثمّ اسمع وطالع شرح الشيخ البوطي، وعدنان إبراهيم، وأنس السلطان، وغيرهم، لاسيّما الدكتور العوّا الذي أفرد مائة وخمسة وثمانين مجلسا لقراءته على مدار خمس سنوات (٢٠١٥-٢٠٢٠).

وحكى الإمام الصوفي عبد الله العيدروس عن نفسه أنه مكث يطالعه ويعاوده ويتدبّره حتى كاد كالقرآن يحفظه، وألزم أخاه بقراءته مرّة بعد مرّة، حتى ردّده على مسامعه خمسا وعشرين مرّة، وعقب كل ختمة دأب على إقامة مائدة يستضيف فيها الفقراء وطلّاب العلم! وبالغ في الإطراء فقال: لو بعث الله الموتى لـما أوصوا الأحياء إلّا بالإحياء. وكان البعض يتقرّب إلى الله بنَسْخه، والبعض الآخَر يخصّص له وِردا يوميّا يجعله كالدَّيْن في رقبته لا ينام عنه ويحاسب نفسه إن قصّرَ في قراءته.

ومن اليقظة إلى المنام، رُوي عن أعلام في أكثر من كتاب، رؤى Ü يعلم الله مدى صحتها - تدّل على فضله وقبوله بالرضا والاستحسان من المصطفى ﷺ وأصحابه الكبار الكرام.. وكلّ ما سبق ليس سوى غيض من فيض في مدحه، وقطرة في بحر يموج بالثناء عليه.

وبينما أحصى الفيلسوف عبد الرحمن بدوي ما يقرب من مائة وعشرين مخطوطة متناثرة في المكتبات الوطنية العالمية شرقها وغربها، فقد ذكرت الباحثة

إصلاح الرفاعي، أن له ستة وعشرين تلخيصا مختصَرا، بعضها لازال مخطوطا في دور الكتب المرموقة كالقاهرة، وبرلين، واستانبول، وطهران، وغيرها. وغنيّ عن الذكر، أن أقدم هذه المختصَرات وأسبقها كان لأحمد الغزالي الأخ الأكبر للإمام والمتوفَّى عام ٥٢٠هـ وجاء تحت عنوان (لباب إحياء علوم الدين)، بل إن الإمام الغزالي ذاته اختصره في حياته لتعذُّر استصحابه مع كبر حجمه، وذلك في كتابه (الأربعين في أصول الدين) المطبوع في أقلّ من مائتي صفحة، مع العلم بأن هذا الإحصاء الأخير للمختصَرات كان في عام ١٩٨٨م؛ بما يعني أن العدد ربما تضاعف أكثر من مرّة بعد مضيّ قرابة خمسة وثلاثين عاما.

ومن العربيّة تُرجم إلى الألمانية، والفارسية، والإسبانية، والكردية، والتركية، وحامت حوله دراسات للماجستير والدكتوراه، وبات من مقرّرات المدارس النظامية، والعمدة في مجالس العلم وحلق الذكر، وما أشبهه بساحة مليئة بالحَبّ تغدو عليه الطير من كل جنس خماصا وتروح بطانا، ولهذا قرّظه العلماء في السابق واللاحق، فقال فيه التاج السبكي: "لو لم يكن للناس في الكتب التي صنّفها أهل العلم إلّا الإحياء لكفاهم، ولا أعرف له نظيرا في الكتب التي صنّفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر"، ووصفه الحافظ العراقي بأنه من أَجلّ كُتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام.

وهذا لا ينفي أن فئة غالت[1] في ذمّه وأهالت التراب عليه من جهة ضعيف الحديث وموضوعه، ومن ناحية إغفال الحديث عن الجهاد، مع ما وصفوه بأغاليط الصوفية والفلاسفة والمتكلّمين! وعلى بعضها ردّ الإمام في حياته برسالة عنوانها (الإملاء عن مشكلات الإحياء).

(١) بلغت المغالاة أقصاها، حين جمعوه في المغرب وحرّقوه على باب المسجد بإيعاز من القاضي ابن حمدون القرطبي والسلطان علي بن يوسف، وشنعوا على عنوانه فقلبوه من إحياء إلى إعياء أو إماتة علوم الدين!

وقد توسّط شيخ الأزهر محمد الخضر حسين فمدحه باعتدال ووسطيّة؛ على عادة العمامة الأزهرية في القضايا المفصليّة، فقال: "وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء مآخذ معدودة، فإنه مِن صنْع بشر غير معصوم من الزلَل، وكفى كتاب الإحياء فضلا وسموّ منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العدّ، وأن يظفر منه طلّاب العلم وعشّاق الفضيلة بما لا يظفرون به في كتاب غيره".

ولا تناقُض في هذا التفاوت بين مادح وقادح، ومنصِف وقاسط؛ فهذا ديدن الأسفار العظيمة التي تأبى خمول الذكر وتثير حولها نقاشا محتدِما لا ينتهي، ثم إن الإمامَ بشَر غير معصوم ولا يشذّ عن قاعدة: مَن صنَّف فقد استُهدِف؛ بل إن طول باعه في التصنيف، وذيوع الإحياء من أقصى الشرق الإسلامي في جاكرتا إلى غربه في طنجة؛ يجعله أكثر عرضة لسهام الاستهداف هذه.

ومع أنّ الكتاب مرآة عصرٍ غلبَت فيه قشورُ الدِّين اللبابَ، حيث راجت الخلافات المذهبية، وكثر المراءً والجدال والمناظرات، وباتت العناية بمقامات القلوب وأحواله فنًّا غريبا مندرسا، فأخذ على عاتقه دقّ ناقوس الخطر والدفع قُدُما باتجاه علوم الآخرة؛ بالكشف عن كنوز العبادات، وكنْه الاعتقاد، وأسرار المعاملات، وطرائق التزكية؛ إلّا أنه بدا وكأنه يخاطبنا ويتحدّث بلساننا ويعيش في القرن الحادي والعشرين بيننا، ولهذا تجده في يومنا هذا حاضرًا للاستشهاد في كل مؤلَّف يمسّ أيّة قضيةً تناولها، ومُرّ ببصرك على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي وستفاجَأ بأنها ملغومة بشتّى الاقتباسات من حِكَمه الغزالية؛ وما ذلك إلّا لأنه كُتب بحرف بعيد النظر واسع المدى عميق الرؤية، لم يكتفِ في التحليق بجناحيْن، ولو حلّق بهما لبلغ المراد، ولكنه بأربعة طار: رُبع العبادات، وربع العادات، وربع المهلِكات، وربع المنجيات، وتحت كل ربع عشرة كُتُب، بلغَت في المجموع أربعين؛ كعمره رضي الله عنه وقتما شرع في تدوينه!

ومن باب التيسير على من يتهيّبون المطوَّلات، سُلخت بعض هذه الكتب من إهاب الإحياء، وطُبعت منفصلة، فغرّدت في المكتبات كدولة مستقلة ذات سيادة لم تصنعها السياسة، ويحسبها القارئ غير المطّلع مولودًا قائمًا بذاته.

وفي ثنايا هذه الأربعين الغزاليّة، لا يفتأ القلم يقيم الحجّة وراء الحجّة، ويسوق الدليل تلو الدليل؛ تارة من القرآن، وتارة من الأخبار والآثار، وتارة من حكمة الحكماء وقصيد الشعراء.. فهل بقي بعد ذلك سبيل للوصول إلى ذُرى الإفادة والإجادة لم يسلكْه؟ وهل مِن ملامة إن صدح في أذن الزمان وحاجج كلّ باحث عن الحقّ والخير بقوله: اللهمّ هل بلّغت اللهمّ فاشهد؟!

ويكفيه قدْرا وفضْلا، أنه من أعدى الأعداء وأثقل الكتب على الشيطان، بعدما فضحه وشهّر به وعلى الملأ عرّاه، إذ بيّن لنا: بم وأين يوسوس؟ وكيف ومتى يكيد؟ فما ترك دسيسة من دسائسه إلّا ودلّنا عليها وفنّدها ووصف سبيل الاحتراز منها، حتى لتسمع إبليس بين السطور يصرخ، وجنده بين الحروف تختنق، وينادي بعضها على بعض بصوت أقرب إلى الفحيح: لا مقام لكم فارجعوا! كما يزداد قدره وشرفه بالمكان الذي كُتب فيه وهو معتكَفه في القدس ودمشق، لينهج بذلك نهج الإمام مالك الذي أملى (الموطّأ) في المسجد النبوي، والإمام الشافعي حين أملى كتابه (الأم) على طلّابه داخل مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط.. ويا لها من ولادةٍ مبارَكة حين تُولد الكُتُب في كنف مساجدَ؛ هي على مرّ الأزمان بيوت المتّقين، ومهوى أفئدة العابدين، وحارسة ديار المسلمين، وروح الجماعة الإسلامية وحصنها الحصين.

وظنّي أنّ الإحياء هو المعبِّر بحقّ عن رؤية الإمام ومواقفه من الكون والدّين والحياة، ولو نُزع من تراثه الرحب المتنوِّع، لاستحال غزاليًّا آخَر غير الكائن الآن؛ وليس في هذا هدْرا من قيمته كإمام الزمان بقدْر ما فيه من إعلاءٍ لمكانة الإحياء كبيضة ديك وسط المصنّفات الإسلامية قاطبة، وكأيقونة ملهِمة أدّت

إلى استعارة لفظ الإحياء وإعادة إنتاجه في العديد من الأدبيات الدينية والفكرية اللاحقة عليه.

ولهذا ارتبط اسم الإمام ارتباطا وثيقا بالإحياء وكأنه لم يؤلّف غيره، واقرأ في ذلك ما قاله شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود: "ليس لدينا إلّا غزاليّ الأحياء وغزاليّ الإحياء"، وغزاليّ الإحياء أشهر من نار على علم، أمّا غزاليّ الأحياء فيقصد أديب الدعوة ومجاهدها العابد الصادق الشيخ محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦)، وذلك في معرض مدحه له حال حياته، ومعلوم أن الشيخ باسمه المركّب (محمد الغزالي) جاء تلبية لرؤيا رأى فيها أبوه (أحمد السقّا) إمامَنا أبا حامد، وبشّره بولادة ولد من زوجته التي حملت لتوّها، ثمّ أوصاه بأن يسمّيه باسمه، فوفّى الرجل متيمِّنا مستبشِرا، وكان للابن من اسمه أوفر نصيب.

وهذا الكتاب الوليد الذي بين يديْكم (أمالي الغزالي)، أزعم أنه أحد مريدي الإحياء غير المغالين مدحا أو المتنقِصين قدْرا، وهو إلى الانتقاء أقرب منه إلى الاختصار، وإلى التشويق والتقريب أدنى منه إلى التحقيق والتهذيب؛ إذ في رحابه يتنزّه، ومن بستان معقول الإمام يقطف، وبلسان قلمه يغرّد، على شرطه الذي شرطه في الترتيب وعلى حدّه الذي حدّه في التبويب، وعلى طريقته الفريدة في اللفّ قبل النشْر والإجمال قبل التفصيل، لا سيّما فيما يخصّ الرقائق وتزكية النفس وأعمال القلب وطريق الآخِرة، والمنثورة بكثافة في رُبْـعَي المهلِكات والـمُنجِيات على وجه التعيين.

وفيه انتقلْت من عالم المادّة إلى عالم الروح، وتخيّلْتُني طويْلب علم، أجلس بين يدي الإمام في مئذنة المسجد الأموي المعروفة الآن بالمئذنة الغزالية، وبيننا موسوعته الإحيائية مشرَعة على مصراعيها كباب قصر منيف؛ أسأله على استحياء فيجيبني بسخاء، وأَسْتمْليه فيُمليني حتى يرويني، وأستنطقه فينطلق كالسيل الهادر والسهم النافذ، ومن هنا جاء عنوان الكتاب..

فالأمالي من الإملاء، وفيها يتحلّق طلّاب العلم بالمحابر والقراطيس حول كبار العلماء الثقات المتقدّمين، وتدوِّن الأقلامُ ما تلتقطه الأسماع، ثم يقابلون المكتوب ومن دقّته يتحقّقون، لتخرج هذه المدوَّنات إلى النور لاحقا كمصنَّفات بارزة، ذاع منها أمالي ثعلب، وأمالي الزجّاج، وأمالي أبي عليّ القالي ـ الذي سبقت وفاتُه مولد الإمام بنحو قرن من الزمان ـ وتُعدّ أماليه أحد أربعة أركان في صرح الأدب، وهي الأشهر على الإطلاق في هذا الباب من المؤلَّفات.

وقد غزلت الكتابَ ـ كنسيج الثوب ـ من سبعمائة اقتباس (٧١١)، جعلتُها موجزة كرسائل البرق والتغريدات بحيث لا يزيد أطولها عن خمسة سطور، وانتقيتُ أكثرها من ربع المُنجِيات (٢٣١)، وربع المُهلِكات (٢٢٣)، والأقلية صارت قَسيم ربع العادات (١١٧) وربع العبادات (١٤٠)، وما زدْت على أن وضعْت لكلّ منها عنوانا من عندي، واختلقْت هامشا قصيرا جدّا وضحّت فيه معنى كلمة أو خرّجتُ آية أو أشرْت إلى متعلِّق، وهو في حكم النادر لاعتقادي الراسخ أن كثرة الهوامش تشتّت القارئ وتصيبه بالدّوار؛ هذا إن قرأها أصلا.

ولعلّنا معًا وبثمار ما نجني من الاطلاع على هذه الأمالي عبر قراءة قلبية متأنية؛ ندخل في زمرة مَن قال فيهم ربّ العزّة والجلال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، على اعتبار أنّ النفس في عمومها بالشهوات هائمة، وإلى الملذّات قابلة مائلة، وعن الطاعات والقُربات نافرة ساهية، وتزكيتها واجب لا يغفل عنه العاقل ساعةً من ليل أو برهةً من نهار.. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين.

د. منير لطفي

كُتب في سلطنة عمان

٢٠٢٢-٢٠٢٣

(١)
رُبع العبادات



العِلم

(١) أنفس الأشياء؟

الشيء النفيس المرغوب فيه، ينقسم إلى: ما يُرغب لذاته؛ كالسعادة في الآخرة ولذّة النظر إلى وجه الله تعالى. وما يُرغب لغيره؛ كالدراهم والدنانير، فإنهما حجَران لا منفعة لهما، ولولا أنّ الله يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة. وما يُطلب لذاته ولغيره؛ كسلامة البدن، فهي مطلوبة من حيث السلامة من الألم، ومطلوبة للتوصُّل بها إلى المآرب والحاجات.. وما يُطلَب لذاته أشرف وأفضل مما يُطلَب لغيره.

(٢) مراتب الـمُصلِحين

السياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم الـمُنجِي في الدنيا والآخرة، على أربع مراتب: الأُولى، وهي العليا: سياسة الأنبياء، وحكْمهم على الخاصّة والعامّة جميعا في ظاهرهم وباطنهم. والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين، وحكْمهم على الخاصّة والعامّة ولكن على ظاهرهم لا باطنهم. والثالثة: العلماء، وحكْمهم على باطن الخاصة فقط. والرابعة: الوعّاظ، وحكْمهم على بواطن العوام فقط.

(٣) علوم العقل

العلوم التي ليست بشرعية، تنقسم إلى: محمود، ومذموم، ومباح، فالمحمود: ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا؛ كالطب والحساب. والمذموم: علم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات. وأمّا المباح: فالعلم بالأشعار التي لا سخْف فيها، وتواريخ الأخبار.

(٤) علوم القرآن

علم القرآن ينقسم إلى: ما يتعلّق باللفظ؛ كتعلّم القراءات ومخارج الحروف. وما يتعلق بالمعنى؛ كالتفسير. وما يتعلق بأحكامه؛ كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنص والظاهر.

(٥) المُكاشَفة والمُعامَلة

علم طريق الآخرة قسمان: علم مكاشفة: وهو علم الباطن، وغاية العلوم، وعلم الصدِّيقين والمقرَّبين، وهو نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك. وعلم معاملة: وهو علم أحوال القلوب، وغاية المعاملة المكاشفة.



(٦) مراتب الورَع

الورَع أربع مراتب: الأُولى: ورع العدول؛ وهو الورع عن كل ما تحرّمه فتاوى الفقهاء. الثانية: ورع الصالحين؛ وهو التوقِّي من الشبهات. الثالثة: ورع المتقين؛ وهو ترك الحلال المحض الذي يُخاف منه أداؤه إلى الحرام. الرابعة: ورع الصدِّيقين؛ وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل، وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام.

(٧) أساطين الفقه

الفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق؛ أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب، خمسة: الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري. والإمام أحمد بن حنبل وسفيان أتباعهما أقل، وسفيان أقل أتباعا من أحمد. وكل واحد منهم كان عابدا، وزاهدا، وعالما بعلوم الآخرة، وفقيها في مصالح الخلق، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى.

(٨) حقيقة التوحيد

التوحيد جوهر نفيس له قشران: القشر الأوّل: أن تقول بلسانك لا إله إلا الله؛ وهذا قد يصدر من المنافق الذي يخالف سرّه جهره. والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول؛ وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون حرّاسه عن تشويش المبتدعة. أما الجوهر واللباب: فأن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط.



(٩) الشطْح الصوفيّ

الشطْح نعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية؛ أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب! والثاني: كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، وهذا يشوّش القلب ويدهش العقول ويحيّر الأذهان، ويفهم كلٌّ واحد منها معاني على مقتضَى هواه وطبعه.

(١٠) التأويل الباطني

تأويل الباطنية حرام وضرره عظيم؛ لأن الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقلٍ عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورةٍ تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلكَ بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله وكلام الرسول، وبهذا الطريق توصّل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم!

(١١) من هنا نبدأ

إن كنتَ مريدا للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدي؛ فاشتغِل بعلم العلل الباطنة وعلاجها، ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة لا محالة، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود، والأرض إذا نُقِيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تُفرَغ من ذلك لم تُنبِت ذاك.

(١٢) الوجيز والوسيط والبسيط

ما من علم إلا وله اقتصار، واقتصاد، واستقصاء. فالاقتصار في التفسير: ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار؛ كما صنّفه علي الواحدي النيسابوري وهو الوجيز، والاقتصاد: ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن؛ كما صنّفه من الوسيط فيه، وما وراء ذلك استقصاء. وأما الحديث، فالاقتصار فيه: تحصيل ما في الصحيحين، والاقتصاد: أن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة. وأما الفقه، فالاقتصار فيه: هو الذي رتّبناه في خلاصة المختصر، والاقتصاد: هو ما أوردناه في الوسيط، والاستقصاء: ما أوردناه في البسيط.

(١٣) السمّ القاتل

الخلافيّات التي أُحدثت في هذه الأعصار المتأخّرة، وأُبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يُعهد مثلها في السلف، إيّاك أن تحوم حولها، واجتنِبْها اجتناب السمّ القاتل، فإنها الداء العضال، وهو الذي ردّ الفقهاء كلّهم إلى طلب المنافسة والمباهاة.

(١٤) أعقل العقلاء؟

الـمَرْضيّ عند العقلاء، أن تقدّر نفسك في العالَم، وحدك مع الله، وبين يديك الموت، والعرض والحساب، والجنة والنار، وتأمّل فيما يعنيك بين يديك، ودع عنك ما سواه والسلام.



(١٥) آفات المناظرات

المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخلاق الذميمة عند الله، المحمودة عند عدوّ الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبْر والعُجْب والحسد والمنافسة وحبّ الجاه وغيرها، كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة.

(١٦) أصناف العلماء

العلماء ثلاثة: إمّا مُهلك نفسه وغيرَه؛ وهم المصرِّحون بطلب الدنيا والمقبِلون عليها. وإمّا مُسعِد نفسه وغيرَه؛ وهم الداعون الخلقَ إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا. وإمّا مهلك نفسَه مسعِد غيرَه؛ وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه.

(١٧) نورالعلم

القلب بيت، هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحلّ استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها، كلاب نابحة، فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلّا بواسطة الملائكة.



(١٨) آداب المتعلِّم

لا ينبغي لطالب العلم أن يتكبّر على المعلّم، ومِن تكبُّره أن يستنكف عن الاستفادة إلّا من المرموقين المشهورين! وهذا عين الحماقة؛ فالعلم سبب النجاة والسعادة، ومَن يطلب مهرَبا من سبع ضارٍ يفترسه، لا يفرّق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوةُ سباعِ النار بالجهّال بالله تعالى؛ أشدّ من ضراوة كلّ سبع، والحكمة ضالّة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها؛ ويتقلّد المنّة لـمَن ساقها إليه كائنًا مَن كان.

(١٩) عظماء العلماء

مَن علم وعمل وعلّم، فهو الذي يُدعَى عظيما في ملكوت السموات؛ فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيّب غيره وهو طيّب. والذي يعلم ولا يعمل به؛ كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خالٍ عن العلم، وكالمِسَنّ الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق!

(٢٠) شرف العِلم

المال وما في الدنيا خادم البدن، والبدن مركب النفس ومطيّتها، والمخدوم هو العلم الذي به شرف النفس. فمَن طلب بالعلم المال، كان كمَن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظّفه، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما، وذلك هو الانتكاس على أُمّ الرأس.



(٢١) الحذَر.. الحذَر

لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر المعلّم معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن، ولا يحرّك عليهم شبهة؛ فإنه ربما تعلّقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلّها فيشقى ويهلك. وحِفظ العلم مـمّن يفسده ويضرّه أَوْلى، فليس الظلم في إعطاء غير المستحِقّ بأقلّ من الظلم في منع المستحِقّ.

(٢٢) الضَّرّتان

الدنيا والآخرة متضادتان؛ كالضرّتيْن متى أرضيْتَ إحداهما أسخطْتَ الأخرى، وككفّتَي الميزان متى رجحَت إحداهُما خفّت الأخرى، وكالمشرق والمغرب متى قرّبْت من أحدهما بعدت عن الآخَر، وكقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ وبقدر ما تصبّ منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخَر.

(٢٣) السفيه:

مثال مَن يُعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال؛ مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا في وقت ضيق يُخشى فواته، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب، وترك مهمّه الذي هو مؤاخَذ به، وذلك محض السفه.

(٢٤) الأُنس بالمباحات:

التزيُّن المباح ليس بحرام، ولكن الخوض فيه يُوجب الأنس به حتى يشقّ تركه، واستدامة الزينة لا تمكن إلّا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخرى هي محظورة، والحزم اجتناب ذلك؛ لأن مَن خاض في الدنيا لا يسلم منها ألبتّة، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها؛ لكان ﷺ لا يبالغ في ترك الدنيا.

(٢٥) مخالطة السلاطين:

الداخل على السلاطين من العلماء، إما أن يلتفت إلى تجمّلهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم، أو يتكلّف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت.. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

(٢٦) القلوب الزّكيّة:

كم من متعلّم طال تعلّمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلّم ومتوفّر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب، وكم من معانٍ دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرّدين للذكر والفكر؛ وذلك من تنبيهات القلوب الزكيّة، وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجّهة إليه.



(٢٧) الشكّ واليقين:

ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات: الأوّل: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويُعبَّر عنه بالشكّ. الثاني: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأوّل، وهذه الحالة تسمّى ظنّا. الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره، ولو خطر بالبال تأبى النفس قبوله، وهذا يسمّى اعتقادا. الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه، وإذا امتنع وجود الشكّ وإمكانه يُسمّى يقينا.

(٢٨) تطهير القلوب:

لا يميل أكثر الخلق إلّا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإنّ الحقّ مرّ والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعِر، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة، فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء، ومنزلة من جعل مدّة العمر صومه فيقاسي ليفطر عند الموت.

(٢٩) تاريخ التصنيف

الكتب والتصانيف محدَثة، إذ لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة، وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين، بل كان الأوّلون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ، وعن القرآن، وعن التدبّر، والذكر، وقالوا: احفظوا كما كنّا نحفظ.

(٣٠) معروفات ومنكَرات

أكثر معروفات هذه الأعصار منكَرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم، إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها! ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان، والتعسّف في النظافة، والوسوسة في الطهارة، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حِلّ الأطعمة وتحريمها!

(٣١) مكانة العقل

العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين. وشرف العلم من قِبَل العقل، إذ كيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ وكيف يُستراب فيه؟ والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى إن أعظمها بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه؛ لشعوره باستيلائه عليه لما خُصّ به من إدراك الحيل.

(٣٢) نور البصيرة

التذكّر ضربان: أحدهما: أن يذكر المرء صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه ولكن غابت بعد الوجود. والآخَر: أن يذكر صورة كانت مضمَّنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة، ثقيلة على مَن يستروجه السماع والتقليد دون الكشْف والعيان.



(٣٣) درجات التعقُّل

انقسام الناس إلى: مَن يتنبّه من نفسه ويفهم، وإلى مَن لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم، وإلى مَن لا ينفعه التعليم ولا التنبيه؛ كانقسام الأرض إلى: ما يجتمع فيه الماء فيتفجّر بنفسه عيونا، وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات، وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل.

قواعد العقائد

(١) سبحانه جلّ شأنه

لا يَحلّ اللهُ تعالى في شيء ولا يَحلّ فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تَقدّس عن أن يحدّه زمان، بل كان قبل أن خُلق الزمان والمكان. وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما عن الأرض والثرى.

(٢) ترسيخ الاعتقاد

الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء، بمعنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو أُلقي إليه، ولا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبيّ والعاميّ حتى يترسّخ ولا يتزلزل، وذلك عبر تلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، والاشتغال بوظائف العبادات، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماعهم وهيآتهم.

(٣) علم الكلام

علم الكلام فيه منفعة ومضرّة، أمّا مضرّته: فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم. وله ضرر آخَر في تأكيد اعتقاد المبدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتدّ حرصهم على الإصرار عليه.

(٤) الفتنة الكبرى

ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة؛ إذ ظن عليّ أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر؛ يؤدّي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرّض الدماء للسفك، وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب.

(٥) الـملْك والـمَلَكوت

أعني بالمُلْك: عالَم الشهادة المُدرَك بالحواس. وبالملكوت: عالَم الغيب المدرَك بنور البصيرة. والقلب من عالَم الملكوت، والأعضاء وأعمالها من عالَم الملك. ولطف الارتباط ودقته بين العالَمَيْن، انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخَر، وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة.

(٦) الكمال عسير

الشكّ في كمال الإيمان حقّ من وجهيْن؛ أحدهما: من حيث إن النفاق يُزيل كمال الإيمان وهو خفيّ لا تتحقق البراءة منه. والثاني: أنه يَكمُل بأعمال الطاعات ولا يُدرى وجودها على الكمال.



(٧) لا يستويان

النفاق نفاقان؛ أحدهما: يُخرج من الدين، ويُلحق بالكافرين، ويسلك في زمرة المخلَّدين في النار. والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدّة، أو يُنقص من درجات علّيين ويحط من رتبة الصدّيقين؛ وأصل هذا النفاق تفاوُتٌ بين السرّ والعلانية، والأمن من مكر الله، والعُجب، وأمور أخرى لا يخلو عنها إلّا الصدِّيقون.

(٨) إلّا الصوم

الصوم الحقيقي هو المقبول، والمقبول غيب لا يطّلع عليه إلّا الله تعالى، فمِن هذا حَسُن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وجميع أعمال البرّ، كسؤالهم: أَصُمت بالأمس؟ فتقول: نعم إن شاء الله. ويكون هذا الاستثناء شكًّا في القبول، إذ يَمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة، أسبابٌ خفيّة لا يطّلع عليها إلّا رب الأرباب جل جلاله.

(٩) خالق كلّ شيء

في فطرة الإنسان وشواهد القرآن؛ ما يغني عن إقامة البرهان على وجود صانع العالَم ومبدئه وبارئه ومُحدثه ومبدعه وهو الله، ولكن على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظّار نقول: من بداءة العقل؛ أن الحادث لا يَستغني عن سبب يُحدثه، والعالَم حادث، فإذًا لا يستغني في حدوثه عن سبب.



أسرار الطهارة

(١) طهارة الأنبياء

الطهارة لها أربع مراتب؛ المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات. الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام. الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة الممقوتة. الرابعة: تطهير السرّ عمّا سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصِدِّيقين.

(٢) عمى البصيرة

مَن عميت بصيرته، لم يفهم من مراتب الطهارة إلّا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللبّ المطلوب، فصار يُمعن فيها ويَستقصي في مجاريها، ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء، وغسل الثياب، وتنظيف الظاهر، وطلب المياه الجارية الكثيرة؛ ظنًّا منه ـ بحكم الوسوسة وتخيُّل العقل ـ أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط!

(٣) إزالة النجاسة

النجاسة إن كانت حُكْميّة؛ وهي التي ليس لها جرم محسوس، يكفي إجراء الماء على جميع مواردها. وإن كانت عينية، فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم واللون والرائحة يدل على بقاء العين، ويُعفى من اللون ما التصق بعد الحت والقرص، ويُعفى من الرائحة ما كان له رائحة فائحة يعسر إزالتها بعد الدلك والعصر مرّات متواليات؛ والذي يقوم مقام الحتّ والقرص في اللون.

(٤) سنّة السواك

يُستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح، ويُستاك عرضا وطولا وإن اقتُصر فعرْضا، ويُستحبّ السواك عند كل صلاة، وعند كل وضوء وإن لم يُصَلِّ عقَيْبه، وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم (ترك الأكل) أو كل ما تُكره رائحته، وينوي عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة.

(٥) الظاهر والباطن

متى فرغ المرء من وضوئه وأقبل على الصلاة، ينبغي أن يخطر بباله أنه طهّر ظاهره وهو موضع نظر الخلق، وأن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه، وتتحقق طهارة القلب بالتوبة والخلو من الأخلاق الذميمة، ومَن يقتصر على طهارة الظاهر؛ كمن يدعو ملِكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات، واشتغل بتجصيص الباب البراني من الدار، وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار.

(٦) زينة الله

واجبٌ على كل عالم تصدّى لدعوة الخلق إلى الله عزّ وجل، أن يراعي من ظاهره ما لا يوجب نفَرة الناس عنه، والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في نفسها تكتسب الأوصاف من المقصود، فالتزيّن على هذا القصد محبوب، وترك الشعث في اللحية إظهارا للزهد محذور، وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب، والناقد بصير والتلبيس عليه غير رائج بحال.

(٧) عبرة لأولي الألباب

سالك طريق الآخرة لا يرى شيئا إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لا ينظر إلى شيء إلّا ويفتح الله له طريق عبرة؛ فإن نظر إلى سواد تذكَّر ظلمة اللّحد، وإن نظر إلى حيّة تذكّر أفاعي جهنم، وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكَّر منكرا ونكيرا والزبانية، وإن سمع صوتا هائلا تذكّر نفخة الصور، وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة، وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل.

(٨) ورثة الأنبياء

العالم لا يكون وارثا للنبي ﷺ إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة، حتى لا يكونَ بينه وبين النبي ﷺ إلّا درجة واحدة وهي درجة النبوّة، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث، إذ الموروث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه، والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه؛ ولكن انتقل إليه وتلقّاه منه بعد حصوله له.

(٩) العقول لا تشيب

هيهات الظنّ بأن كثرة الأيام تعطي فضلا، فلا يزيد كبرُ السنّ الجاهلَ إلا جهلا، فالعلم ثمرة العقل، والعقل غريزة لا يؤثّر الشيب فيها، ومَن كانت غريزته الحمق فطول العمر يؤكّد حماقته، وقد كان الشيوخ يقدّمون الشباب بالعلم؛ كعمر ابن الخطاب مع ابن عباس رضي الله عنهما.

أسرار الصلاة

(١) روحها وأركانها وسننها وهيئاتها

روح الصلاة وحياتها الباطنة: الخشوع، والنيّة، وحضور القلب، والإخلاص. وأركانها تجري من الإنسان مجرى القلب والرأس والكبد، إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها. أما السنّن كرفع اليدين مثلا، فلا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات اليدين والرجلين، ولكن يصير الشخص مشوّه الخلقة مذموما. أمّا الهيئات وهي ما وراء السنن، ووظائف الأذكار، فتجري مجرى أسباب الحُسن ومكمّلاته مثل: الحاجبيْن واستقْواسهما، واللحية واستدارتها.

(٢) الإحسان في الصلاة

الصلاة قرْبة وتحفة تتقرّب بها إلى حضرة ملِك الملوك، كوصيفة يهديها طالبُ القربة من السلاطين إليهم، وهذه التحفة تُعرض على الله، ثم تُردّ عليك يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيحها، إن أحسنْت فلنفسك وإن أسأت فعليها.

(٣) حضور القلب

المقصود من القراءة والأذكار؛ الحمد والثناء والتضرّع والدعاء، والمخاطَب هو الله عزّ وجل، وقلبٌ غافل عن المخاطَب ولسانه يتحرّك بحكم العادة، ما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شُرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله عزّ وجل، ورسوخ عقد الإيمان به.

(٤) معرفتان متلازمتان؟

ما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله، لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع في الصلاة، فإن المستغني عن غيره الآمِن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

(٥) رأس الخطايا؟

شجرة الشهوات إذا تشعّبَت وتفرَّعَت أغصانها، انجذبت إليها الخواطر انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها، فإن الذباب كلما ذُبّ آب ولأجله سُمِّي ذبابا، فكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة وقلّما يخلو العبد عنها، ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد.

(٦) ستر العورتيْن

ستْر العورة معناه: تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فما بالك بعورات باطنك وفضائح أسرارك التي لا يطلع عليها إلّا ربك، فأحضِر تلك الفضائح ببالك في الصلاة وطالِب نفسك بسترها وتَحقَّق أنه لا يستر عَن عين الله ساتر، وإنما يغفرها الندم والخوف، فتستفيد بإحضارها انبعاث جنود الخوف والحياء؛ فتذلّ نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه حياءً.



(٧) هكذا تكون المناجاة

عظِّم في نفسك قدر مناجاة الله، وانظر مَن تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي؟ وعند هذا، ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفرّ وجهك من الخوف. وإياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، فيتوجّه وجه بدنك إلى فاطر الأرض والسموات، بينما وجه قلبك متوجّه إلى أمانيه وهمّه في البيت والسوق متَّبِع للشهوات!

(٨) الـمُقَـرَّبون

الناس في القراءة أثناء الصلاة ثلاثة: رجل يتحرّك لسانه وقلبه غافل! ورجل يتحرّك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمع من غيره، وهي درجات أصحاب اليمين. ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أوّلا، ثم يخدم اللسانُ القلب فيترجمه، والمقرَّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب.

(٩) حقوق القرآن

ينبغي أن تفهم ما تقرأ من القرآن، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكْر منّته وإحسانه. ولكلّ واحد حقّ؛ فالرجاء حقّ الوعد، والخوف حقّ الوعيد، والعزم حقّ الأمر والنهي، والاتعاظ حقّ الموعظة، والشكر حقّ ذكر المنّة، والاعتبار حقّ إخبار الأنبياء.

(١٠) معنى السجود؟

السجود هو أعلى درجات الاستكانة، فتُمكِّن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذلّ الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل، فإنه أجلب للخشوع وأَدلّ على الذلّ. وإذا وضعْت نفسك موضع الذلّ فاعلم أنك وضعْتها موضعها ورددْت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خُلقت وإليه تعود.

(١١) النيّة الصحيحة

مَن دخل عليه عالِـم فقام له، لو قال: نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهي؛ كان سفها في عقله. بل كما يراه ويعلم فضله، تنبعث داعية التعظيم فتقيمه. ومَن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية.

(١٢) أقسام النافلة

النفل هو الزيادة، وجملتها زائد على الفرض، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن، ومستحَبّات، وتطوّعات. ونعني بالسنن: ما نُقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه؛ كصلاة الضحى والوتر، لأنّ السُنّة عبارة عن الطريق المسلوكة. ونعني بالمستحَبّات: ما ورد الخبر بفضله ولم يُنقل المواظبة عليه. ونعني بالتطوّعات: ما وراء ذلك مما لم يرِد في عينه أثر ولكن تطوّع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عزّ وجل بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقا.

(١٣) فوق بعض درجات

سُنن الجماعات أفضل من سُنن الانفراد، وأفضل سنن الجماعات؛ صلاة العيد ثمّ الكسوف ثم الاستسقاء. وأفضل سنن الانفراد، الوِتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها.

(١٤) سبع عشرة

اختار بعض العلماء من مجموع الأخبار، أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة؛ ركعتان قبل الصبح، وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها، وأربع قبل العصر، وركعتان بعد المغرب، وثلاث بعد العشاء الآخِرة وهي الوتر. والفرائض تكمُل بالنوافل، فمن لم يستكثر منها، يوشك أن لا تَسلم له فريضة من غير جابر.

(١٥) ما قبل صلاة الاستسقاء

إذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار؛ يُستحب للإمام أن يأمر الناس أوّلا بصيام ثلاثة أيام، وما أطاقوا من الصدقة، والخروج من المظالم، والتوبة من المعاصي، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظّفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين، وقيل يستحبّ إخراج الدوابّ لمشاركتها في الحاجة.

أسرار الزكاة

(١) الامتحان الصعب

التوحيد باللّسان قليل الجدوى، وإنما يُمتحَن درجة المحبّ بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تَمتُّعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالَم وينفرون عن الموت مع أنّ فيه لقاء المحبوب، فامتُحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستُنزِلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم بالزكاة.

(٢) مقصود الشرع

ما يُعقَل معناه، قد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه، فلا يظهر به خلوص الرقّ والعبودية، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحقّ أمر المعبود فقط لا لمعنى آخَر، وأكثر أعمال الحجّ كذلك. ومقصود الشرع الابتلاء بالعمل ليُظهر العبدُ رقَّه وعبوديتَه بفعل ما لا يُعقل له معنى.

(٣) علاج البخل

تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال، فحبّ الشيء لا ينقطع إلّا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا، والزكاة بهذا المعنى طهرة تطهّر صاحبَها عن خبَث البخل المهلِك. ولله عزّ وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، والعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال.



(٤) فهو خير لكم

بالَغ في فضل إخفاء العطاء جماعةٌ حتى اجتهدوا أن لا يَعرف القابضُ المعطِي؛ فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يُرى المعطي، وبعضهم كان يصرّه في ثوب الفقير وهو نائم؛ كل ذلك توصُّلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة.

(٥) فنِعمّا هي

إبداء الصدقات؛ إمّا للاقتداء، وإمّا لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس. ولا ينبغي أن يُترك التصدّق خيفة من الرياء في الإظهار، بل ينبغي أن يتصدّق المرء ويحفظ سرّه عن الرياء بقدر الإمكان، ومَن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأوْلى والألْيق بكل حال.

(٦) مبطِلات الصدَقَة

المَنّ: هو التحدّث بالعطاء وإظهاره وطلب المكافأة بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور. وأمّا الأذى: فظاهره: التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف، وباطنه: كراهيته لرفع اليد عن المال، ورؤية المعطي أنه خير من الفقير.

(٧) مـمّا تحبّون

إذا لم يكن المُخرَج من جيّد المال فهو من سوء الأدب، إذ قد يمسك المتصدّق الجيّد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره! ولو فعل هذا بضيفه وقدّم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، هذا إن كان نظره إلى الله عزّ وجل، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة، فليس بعاقل مَن يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدّق به فأبقى أو أكل فأفنى.

(٨) خصوص العموم

على المتصدِّق أن يطلب لصدقته مَن تزكو به الصدقة ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية، فإن في عمومهم خصوص صفات فليراعها، وهي ستة:

الأُولى: أن يطلب الأتقياء. الثانية: أن يخص أهل العلم؛ فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات متى صحت فيه النيّة. الثالثة: أن ينتقي الصادق في تقواه وعلمه بالتوحيد. الرابعة: أن يبحث عن المستتِر الـمُخفي حاجته المتعيِّش في جلباب التجمّل. الخامسة: يا حبّذا المُعيل أو المَحبوس بمرض أو بسبب من الأسباب التي تقص الجناح وتقيّد الأطراف. السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فتكون صدقة وصلة.



أسرار الصوم

(١) بين العبد وربّه

الصوم كفّ وترْك، وهو في نفسه سرّ ليس فيه عمل يُشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرَّد.

(٢) هداية الصائم

لـمّا كان الصوم على الخصوص قمعًا للشيطان وسدًّا لمسالكه وتضييقًا لمجاريه، استحقّ التخصيص بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، ففي قمع عدوّ الله نصرة لله سبحانه، وناصر الله تعالى موقوف على النصرة، فالبداية بالجهد من العبد، والجزاء بالهداية من الله عزّ وجلّ.

(٣) درجات الصوم

الصوم ثلاث درجات: صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة. وصوم الخصوص: وهو كفّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وهو صوم الصالحين. وصوم خصوص الخصوص: وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عزّ وجلّ بالكلية، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين.



(٤) لماذا نصوم؟

لا معنى للصوم وهو الكفّ عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام؟! فمثال هذا الصائم مثال مَن يبني قصْرا ويهدم مِصْرا. فإنّ الطعام الحلال إنما يضرّ بكثرته لا بنوعه، والصوم لتقليله. وترك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره، إذا عدل إلى تناول السمّ كان سفيها، والحرام سمّ مهلِك للدِّين، والحلال دواء ينفع قليله ويضرّ كثيره وقصد الصوم تقليله.

(٥) بين البهائم والملائكة

الإنسان رتبته فوق رتبة البهائم، لقدرته بنور العقل على كسر شهوته. ودون رتبة الملائكة، لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتَلى بمجاهدتها. وكلما انهمك في الشهوات انحطّ فالتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع فالتحق بأفق الملائكة، والملائكة مقرّبون من الله، والذي يقتدي ويتشبّه بهم يقرب من الله عز وجل كقربهم، فإن الشبيه بالشبيه قريب، وليس القرب ثـَمّ بالمكان بل بالصفات.

(٦) خاب وخسر

كم من صائم مفطِر! فمثل مَن كفّ عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام، كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات، فقد وافق في الظاهر العدد، إلا أنه ترك المهم وهو الغسل، فصلاته مردودة عليه.

(٧) حصن الأولياء

جعل الله الصوم حصنا لأوليائه وجُنّة، وفتح لهم به أبواب الجَنّة، وعرّفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكِنّة، وإنما تَـقوَى الشهواتُ بالأكل والشرب، وبقمعها عن طريق الصوم تصبح النفس مطمئنة ظاهرة الشوكة في قصْم خصمها وقهْر عدوّ الله عزّ وجلّ.

(٨) رُبع الإيمان!

الصوم ربع الإيمان بمقتضَى قوله ﷺ: "الصوم نصف الصبر"، وبمقتضَى قوله ﷺ: "الصبر الإيمان"، ولهذا يُفرَغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازَف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير.

(٩) السُّنن الظاهرة

سُنن الصوم ستّ:

تأخير السحور، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخير منه فهو عادة رسول الله صلى الله عليه سلم.

أسرار الحجّ

(١) شرف مكّة

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكّة، لمعانٍ ثلاثة: الأوّل؛ خوف التبرّم والأنس بالبيت. الثاني: تهييج الشوق بالمفارقة، لتنبعث داعية العودة. الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فإن ذلك بالحريّ أن يُورث مقت الله عز وجل، لشرف الموضع.

(٢) الامتثال في الحجّ

الزكاة إرفاق، ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل. والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدوّ الله، وتَفرّغٌ للعبادة بالكفّ عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة، تَواضُعٌ لله بأفعال هي هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله. أما تردّدات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال، فلا حظّ للنفوس ولا أُنْس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعث، إلّا الأمر المجرّد وقصد الامتثال من حيث أنه واجب الاتباع فقط.

(٣) أبلَغ التعبُّد

إذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع، فيتردّدون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يُهتدى إلى معانيه، أبلغ أنواع التعبّدات في تزكية النفس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق.

(٤) بيت الله الحرام

المُحِبّ مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة، والبيت الحرام مضاف إلى الله عزّ وجل، فبالحريّ أن يُشتاق إليه لمجرّد هذه الإضافة، فضلا عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل.

(٥) أمّا قبل

إن كنت راغبا في قبول حجّك وعمرتك؛ فرُدّ المظالم وتُب إلى الله أوّلا من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجّها إلى الله بوجه قلبك كما أنك متوجّه إلى بيته بوجه ظاهرك، فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أوّلا إلّا النّصَب والشقاء وآخرا إلّا الطرد والردّ.

(٦) الطواف الشريف

اعلم أنك بالطواف متشبّه بالملائكة المقرَّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله، ولا تظننّ أن المقصود طواف جسمك بالبيت، بل المقصود طواف قلبك بذكر ربّ البيت، حتى لا تبتدئ الذكر إلّا به ولا تختم إلّا به كما تبتدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت، واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الـمُلك لتلك الحضرة التي لا تُشاهَد بالبصر وهي عالم الـمَلكوت.

(٧) وتتداعى الخواطر

وقوع البصر على البيت الحرام، ينبغي أن يُحضر عظمة البيت في القلب، ويقدّر الزائر كأنه مشاهِد لربّ البيت لشدّة تعظيمه إياه. ويرجو أن يرزقه الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقه النظر إلى بيته العظيم، ويشكر الله على تبليغه هذه الرتبة وإلحاقه بزمرة الوافدين عليه.

(٨) أستار الكعبة

لتكن نيتك في التعلُّق بأستار الكعبة؛ الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمذنب المتعلِّق بثياب مَن أذنب إليه، المتضرِّع إليه في عفوه عنه، المظهر أنه لا ملجأ منه إلّا إليه ولا مَفزع له إلا كرمه وعفوه، وأنه لا يفارق ذيله إلّا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل.

(٩) يَطّوّف بهما

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت الحرام، يضاهي تردُّد العبد بفناء دار الملِك جائيا وذاهبا إظهارا للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة. وليَتذكّر عن تردّده بين الصفا والمروة، تردّده بين كفّتي الميزان في عرصات القيامة، وليمثّل الصفا بكفّة الحسنات والمروة بكفّة السيئات، وليتذكّر تردّده بين الكفّتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان متردّدا بين العذاب والمغفرة.

(١٠) عرصات وعرفات

ما تراه من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتّباع الفرق أئمتهم في التردّدات على المشاعر اقتفاءً لهم وسيْرا بسيرهم يوم الوقوف بعرفة، يذكّرك بعرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الردّ والقبول.

(١١) آداب زيارة الحبيب

عند زيارة رسول الله، ينبغي أن تقف بين يديه وتزوره ميتا كما تزوره حيا، ولا تقرّب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيّا، وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمسّ شخصه ولا تقبّله بل تقف من بُعد ماثلا بين يديه، فكذلك فافعل، فإن المسّ والتقبيل للمَشاهِد عادة النصارى واليهود.

(١٢) حجّا مقبولا

يتعرَّف الحاج على القبول، من قلبه وأعماله؛ فإن صادف قلبا قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأُنس بالله تعالى، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع، فليثق بالقبول، فإن الله تعالى لا يقبل إلا مَن أَحَبه، ومَن أحبه تولّاه وأظهر عليه آثار محبته وكفّ عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله.

آداب تلاوة القرآن

(١) لعلّكم تُرحَمون

أفضل أحوال قارئ القرآن، أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد، وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب، فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش، فله أيضا فضل ولكن دون ذلك.

(٢) درجات ختم القرآن؟

في ختم القرآن أربع درجات: الختم في يوم وليلة وقد كرهه جماعة. والختم في كل شهر، وكأنه مبالغة في الاقتصار كما الأوّل مبالغة في الاستكثار. وبينهما درجتان معتدلتان: إحداهما في الأسبوع مرّة، والثانية في الأسبوع مرّتين.

(٣) غذاء الروح

التفصيل في مقدار القراءة؛ أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا يُنقص عن ختمتين أسبوعيا، وإن كان من السالكين بأعمال القلوب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس من ختمة أسبوعيا، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي بختمة شهريا لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمّل.

(٤) ورتّله ترتيلا

الترتيل مستحَب لا لمجرّد التدبّر، فإنّ العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يُستحَب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال.

(٥) عليكم بالجهر

الجهر في القراءة أفضل؛ لأن العمل فيه أكثر. ولأن فائدته أيضا تتعلّق بغيره، والخير المتعدِّي أفضل من اللازم. ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همّه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم ويقلّل من كسله ويزيد من نشاطه في القراءة، ولأنه يرجو بجهره تيقّظ نائم فيكون سبب إحيائه.

(٦) فضيلة التفكُّر

تعظيم الكلام من تعظيم المتكلِّم، ولن تحضر عظمة المتكلّم ما لم يتفكر القارئ في صفات الله وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجنّ والإنس والدوابّ والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكلّ في قبضة قدرته متردّدون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، فبالتفكّر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلّم ثمّ تعظيم الكلام.

(٧) الخالق البارئ

ينبغي أن نشهد في العقل: الفاعلَ دون الفعل؛ فمَن عرف الحقّ سبحانه رآه في كلّ شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكلّ على التحقيق. ومَن لا يراه في كل ما يراه، فكأنه ما عرفه. ومَن عرفه عرف أنّ كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجهه.

(٨) الصنعة والصانع

ينبغي التأمل في المنيّ، وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم النظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكُّل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والجهل، فيتأمل هذه العجائب ويترقّى في النظر إلى الصنعة ليرى الصانع.

(٩) كلّا بل ران

كلما كانت الشهوات أشدّ تراكما، كانت معاني الكلام أشدّ احتجابا، وكلّما خفّ عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلّي المعنى. فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة.

(١٠) حُجُب واجبة التمزيق

حُجُب الفهم أربعة: أوّلها؛ أن يكون الهمّ منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها. وثانيها؛ أن يكون القارئ مقلّدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له. وثالثها؛ أن يكون مصرّا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلًى في الجملة بهوى في الدنيا مُطاع. ورابعها؛ أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأنّ مَن فسّر القرآن بالرأي فقد تبوّأ مقعده من النار.

(١١) التأثير والتأثّر

هكذا يتأثر العبد بالتلاوة ويصير بصفة الآية المتلوّة؛ فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسّع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها.

(١٢) رتِّل وترجِم واتّعِظ

تلاوة القرآن حقّ تلاوته، هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب؛ فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

(١٣) بين الغافلين والمقرَّبين

درجات القراءة ثلاث: أدناها؛ أن يقدّر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل، فيكون مقامه السؤال والتملق والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله يراه ويخاطبه، فيكون مقامه مقام الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. الثالثة؛ أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه، وهذه درجة المقرّبين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

(١٤) وقنا عذاب النار

مَن رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة، كانت رؤيته سبب قربه. فمن شهد البُعد في القرب، لطف به في الخوف، حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها. ومن شهد القرب في البعد، مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه.

(١٥) التفسير الفاسد

المراد بالرأي الفاسد في التفسير؛ الرأي الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والتسارُع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهَمة والمبدَلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير.

الأذكار والدعوات

(١) الذِّكر النافع؟

المؤثّر النافع، هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، أمّا الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى. وحضور القلب في لحظة بالذكر، والذهول عن الله عزّ وجل مع الاشتغال بالدنيا، قليل الجدوى أيضا. بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام، أو في أكثر الأوقات، هو المقدَّم على العبادات، بل به تشرف سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية.

(٢) طريق الوصول

الـمُريد في بداية أمره، قد يكون متكلّفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عزّ وجل، فإن وُفِّق المداومة، أنس به وانغرس في قلبه حبّ المذكور، فمَن أكثر ذكر شيء وإن كان تكلُّفا أحبّه.

(٣) الأنيس حيث لا ونيس

عند الموت، لا يبقى مع العبد في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية، ولا يبقى إلّا ذكر الله عزّ وجل، فإن كان قد أنس به، تمتع به وتلذّذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الدنيا تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خُلّي بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلّص من السجن المانع من الأنس بالله.



(٤) تلك عشرة كاملة

آداب الدعاء عشرة: أن يترصّد العبد لدعائه الأوقات الشريفة، ويغتنم الأحوال الشريفة، ويستقبل القبلة ويرفع يديه، ويخفض الصوت بين المخافتة والمجاهرة، ولا يتكلّف السجع في الدعاء، ويتحرّى التضرّع والخشوع والرغبة والرهبة، ويجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه، ويلح في الدعاء ويكرره ثلاثا، ويفتتح الدعاء بذكر الله عزّ وجل فلا يبدأ بالسؤال، والعاشر: التوبة وردّ المظالم والإقبال على الله بكنه الهمّة فذلك هو أصل الإجابة

(٥) نفحات الأوقات والحالات

الحقيقة أنّ شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات أيضا؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوّشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل. فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها.

(٦) البلاء مجلبة الدعاء

الغالب على الخلْق، أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمّة، فإن الإنسان إذا مسّه الشرّ فذو دعاء عريض. والحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يردّ القلب إلى الله بالتضرع والاستكانة، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات. ولذلك صار البلاء موكّلا بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل، لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرّع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه.

ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

(١) مسافرون

الناس في هذا العالم في سفر، أوّل منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنّة أو النار، والعمر مسافة السفر؛ فسنّوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطّاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله في دار السلام، وخسرانه البعد من الله في دركات الجحيم.

(٢) قليل يكفي خير من كثير يلهي

محبة الله والأنس به، لا تحصل إلّا من دوام الذكر والمواظبة عليه، والمعرفة به لا تحصل إلّا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلّا بوداع الدنيا وشهواتها، والاجتزاء منها بقدر البلْغة والضرورة.

(٣) ترغيب النفس

النفس لِما جُبلت عليه من السآمة والملال، لا تصبر على فنّ واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، والله تعالى لا يملّ حتى تملّوا، ومن ضرورة اللطف بها أن تُروَّح بالتنقل من فنّ إلى فنّ ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت، لتَغزُر بالانتقال لذّتها، وتَعظُم باللذة رغبتها، وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها.



(٤) مع الله

مَن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب، فليستغرق أوقاته في الطاعة. ومَن أراد أن تترجّح كفّةُ حسناته وتَثقل موازينُ خيراته، فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته. فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا، فأمره مخطِر، ولكن الرجاء غير منقطِع والعفو من كرم الله منتظَر، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

(٥) فاعتبروا يا أولي الأبصار

لا تظننّ أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم ومرتَّب، ومن خلق الظل والنور والنجوم، أن يُستعان بها على أمور الدنيا، بل لتعرف بها مقادير الأوقات، فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة، وتتدارك في أحدهما (أي الليل والنهار) ما فات في الآخر.

(٦) قليل يدوم خير من كثير يفوت

كل طاعة لا يمكن المواظبة على كثيرها، فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا في القلب من كثيرها مع الفترة، ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتُحدث فيها حفيْرة ولو وقع ذلك على الحجر، ومثال الكثير المتفرّق ماءٌ يُصبّ دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر.

(٧) فيم نتفكَّر؟

مجامع التفكُّر ترجع إلى فنَّيْن: أحدهما: أن يتفكّر العبد فيما ينفعه من المعاملة؛ فيحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره، ويستحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملاته، ويدبّر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير. والثاني: فيما ينفعه في علم المكاشفة؛ فيتفكّر في نعم الله الظاهرة والباطنة، وفي عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله ويزيد خوفه.

(٨) أشرف العبادات

متى تيسّر الفكر، فهو أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمريْن، أحدهما: زيادة المعرفة، إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف. والثاني: زيادة المحبة، إذ لا يحب القلبُ إلّا مَن اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله إلّا بمعرفة صفاته وقدرته وعجائب أفعاله. فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة.

(٩) محبّة العارف

الذِّكر يورث الأُنس وهو نوع من المحبة، لكن المحبة التي سببها المعرفة أقوى وأثبت وأعظم، ونسبة محبة العارف، إلى أُنس الذاكر من غير تمام الاستبصار، كنسبة عشق مَن شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وخصاله بالتجربة، إلى أنس من كُرّر على سمعه وصْف غائبٍ عن عينه بالحسْن في الـخَلْق والـخُلُق مطلقا، فليس الخبر كالمعاينة.



(١٠) وغرّهم بالله الغَرور

قِيل: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن: مسجد يَعمره. وبيت يستره. وحاجة لا بد منها، وقلّ مَن يعرف القدر فيما لا بدّ منه، بل أكثر الناس يقدّرون فيما عنه بدّ أنه لا بدّ منه؛ ذلك أن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون ما لا يأكلون خيفة الفقر، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون!

(١١) عليكم بالقيلولة

القيلولة سنّة يُستعان بها على قيام الليل، كما أن التسحّر سنّة يُستعان بها على صيام النهار، فإن كان لا يقوم بالليل، لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم، فالنوم أحب له، إذ في النوم الصمت والسلامة.

(١٢) الذكر وقت الغفلة

الصلاة والذكر من أفضل أعمال النهار، لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجلّ واشتغالهم بهموم الدنيا، فالقلب المتفرّغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه، جدير بأن يزكّيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته. وفضل ذلك كفضل إحياء الليل، فإن الليل وقت الغفلة بالنوم، وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا.



(١٣) نعمة النوم

النوم غذاء الروح، كما أن الطعام غذاء الأبدان، وكما أن العلم والذكر غذاء القلب، ولا يمكن قطعه عنها، والنقصان عن قدر الاعتدال فيه ربما يفضي إلى اضطراب البدن، إلا مَن يتعوّد السهر تدريجا فقد يمرّن نفسه عليه من غير اضطراب.

(١٤) حدّ الاعتدال

الحدّ في النوم، أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، والاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعا، فإن نام هذا القدر في الليل فلا معنى للنوم في النهار، وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالنهار، فحسب ابن آدم عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة، فمتى نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث.

(١٥) المغبون والملعون

مع الغروب، ينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فإن ساوى يومُه أمسَه فيكون مغبونا، وإن كان شرا منه فيكون ملعونا. وإن رأى نفسه متوفّرا على الخير جميع نهاره، كانت بشارة، وليشكر الله تعالى على توفيقه وسداده إياه لطريقه. وإن تكن الأخرى، فالليل خلفة النهار، وليعزم على تلافي ما سبق من تفريطه، فإن الحسنات يذهبن السيئات.



(١٦) الاحتياط واجب

في صلاة الليل، الأكياس يأخذون أوقاتهم من أوّل الليل، والأقوياء من آخِره، والحزم التقديم؛ فإنه ربما لا يستيقظ، أو يثقل عليه القيام، إلّا إذا صار ذلك عادة فآخر الليل أفضل.

(١٧) قبل النوم

آداب النوم عشرة: الطهارة والسواك، نية القيام للعبادة عند التيقُّظ، أن لا يبيت مَن له وصية إلّا ووصيته مكتوبة، وأن ينام تائبا من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين، ويقتصد في التنعّم بتمهيد الفرش، مع استقبال القبلة، والدعاء، وأن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ويتذكّر أن النوم نوع وفاة والتيقّظ نوع بعث، والعاشر: الدعاء عن التنبّه.

(١٨) نوم الكبار الأوائل

كان بعض السلف يكره تمهيد الفراش للنوم ويرى ذلك تكلّفا، وكان أهل الصفّة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا، ويقولون منها خُلقنا وإليها نردّ، وكانوا يرون ذلك أرقّ لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم. وقد كان نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة؛ ولذلك وُصفوا بأنهم قليلا من الليل ما يهجعون..

فمَن لم تسمح نفسه بذلك فليقتصد.

(١٩) سؤال لا مَحيد عنه

حُقّ على العبد أن يفتش عند نومه: على ماذا ينام، وما الغالب عليه: حبّ الله تعالى ولقائه، أم حبّ الدنيا؟ وليتحقّق أنه يُتوفَّى على ما هو الغالب عليه، ويُحشر على ما يُتوفّى عليه، فإن المرء مع مَن أَحبّ وما أَحبّ.

(٢٠) قسْمة الإمام

أحسن تقسيم في الليل، هي قسمة الإمام الشافعي رضي الله عنه، إذ كان يقسمه ثلاثة أجزاء؛ ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأوّل، وثلثا للصلاة وهو الوسط، وثلثا للنوم وهو الأخير. وهذا يتيسّر في ليالي الشتاء، والصيف ربما لا يحتمل ذلك، إلّا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

(٢١) اللازم والمتعدِّي

المحترِف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله، ليس له أن يضيّع العيال ويستغرق الأوقاتَ في العبادات والأوراد، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته، بل يواظب على الأذكار وقراءة القرآن، فإن ذلك يمكن أن يُجمع إلى العمل، وإنْ داوم على الكسب وتصدّق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد، لأن العبادة المتعدّية فائدتها أنفع من اللازمة.

(٢٢) ترتيب المهامّ

يُقدَّم على العبادات البدنية أمران، أحدهما: العِلم، والآخَر: الرفق بالمسلمين؛ لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف، عملٌ في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات بتعدِّي فائدته وانتشار جدواه، فكانا مقدَّميْن.



(٢٣) أيهما أنفع؟

ما ينحلّ عن القلب من عقد حبّ الدنيا بقول واعظٍ حسَن الكلام زكيّ السيرة، أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حبّ الدنيا.

(٢٤) رباعيّة قيام الليل

الميسِّرات الظاهرة لقيام الليل أربعة أمور:

الأوّل: أن لا يُكثر الأكل فيُكثر الشرب فيغلبه النوم ويَثقل عليه القيام. الثاني: أن لا يُتعِب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم. الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها سُنّة للاستعانة على قيام الليل.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يُقسّي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.

(٢)
رُبع العادات



آداب الأكل

(١) لماذا نأكل؟

مَن يَقدُم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوِّي به التقوى، لا ينبغي أن يسترسل فيه استرسال البهائم في المرعى، فإنما هو ذريعة إلى الدّين ووسيلة إليه، وينبغي أن تظهر أنوار الدّين عليه، وإنما أنوار الدّين آدابه وسننه التي يُزمّ العبدُ بزمامها ويُلجَم المتقِّي بلجامها، فيصير بسببها مدْفعة للوزر ومجْلبة للأجر وإن كان فيه أوفى حظّ للنفس.

(٢) لا حَرَج

لسنا نقول الأكلِ على المائدة منهيّ عنه نهي كراهة أو تحريم، إذ لم يثبت فيه نهي، وما يُقال أنه أُبدع بعد رسول الله ﷺ ليس كله منهيا عنه، بل المنهيّ عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علّته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب، وليس في المائدة إلّا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل.

(٣) وإذا أكلْنا لا نشبع

من أكل لأجل قوّة العبادة، لم تصدق نيته إلّا بأكل ما دون الشبع، فإنّ الشبع يمنع من العبادة ولا يُقوّي عليها، ومن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع ولا يقصد التلذّذ والتنعّم بالأكل.



(٤) إنما الأعمال بالنيّات

النية إنما تؤثّر في المباحات والطاعات، أمّا المنهيّات فلا، فإنه لو نوى أن يَسُرّ إخوانَه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر، لم تنفع النية ولم يَجُز أن يقال: إنما الأعمال بالنيات، بل لو قصد بالغزو -الذي هو طاعة- المباهاة وطلب المال، انصرف عن جهة الطاعة.

(٥) آداب الطعام

من آداب الاجتماع والمشاركة في الأكل؛ أن يبتدئ الطعام مَن يستحقّ التقديم بكبر سنّ أو زيادة فضل. وأن لا يسكت المجتمِعون على الطعام؛ فإن ذلك من سيرة العجم، ولكن يتكلّمون بالمعروف ويتحدّثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

(٦) إلّا وُسْعَها

من آداب الاستضافة؛ ترك التكلّف أوّلا وتقديم ما حضر من الطعام، فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوّش على نفسه، وإن حضره ما هو محتاج إليه لقُوته ولم تسمح نفسه بتقديمه فلا ينبغي أن يقدّمه.

(٧) الأكل من الدِّين

مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرّر الأوقات، ومن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدّين.

(٨) اغسِل يديك قبل الأكل

اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، وغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة. ولأنّ الأكل لقصد الاستعانة على الدِّين عبادة، فهو جدير بأن يُقدَّم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة.

(٩) الطعام أم الصلاة؟

متى كانت النفس لا تتوق إلى الطعام، ولم يكن في تأخير الطعام ضرر، فالأَوْلى تقديم الصلاة. أما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوّش أمره، فتقديمه أحب عند اتساع الوقت، تاقت النفس أو لم تتُق؛ لعموم الخبر، ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالبا.



(١٠) آداب الضيافة

ينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفسّاق، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص، وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إيحاشا لقلوب الباقين، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة بل استمالة قلوب الإخوان والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلب المؤمنين.

(١١) اللّاءات الأربع؟

من آداب الضيف حين يحضر؛ ألّا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع، ولا يطوّل الانتظار عليهم، ولا يَعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيّق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتّة فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوّش عليه.

(١٢) تعجيل الطعام

من إكرام الضيف تعجيل الطعام، ومتى حضر الاكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخّروا عن الوقت الموعود، فحقّ الحاضر في التعجيل أوْلى من حق أولئك في التأخير؛ إلّا أن يكون المتأخِّر فقيرا أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير.

آداب النكاح

(١) الأخذ بالأسباب

القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وزواج، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب الأسباب على المسببات، مع الاستغناء عنها إظهارا للقدرة، وإتماما لعجائب الصنعة، وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقّت به الكلمة وجرى به القلم.

(٢) تَناسَلوا

في التوصُّل إلى الولد قرْبة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب في الزواج عند الأمن من غوائل الشهوة: الأوّل: موافقة محبة الله بالسعي لإبقاء جنس الإنسان. الثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في التكثير من مباهاته. الثالث: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده. الرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

(٣) لا للعُزوبة

كلّ ممتنع عن النكاح، معرِض عن الحراثة مضيِّع للبذر معطِّل لما خلق الله من الآلات المعَدّة، وجانٍ على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية.



(٤) علاج الملل

النفس مَلول، وهي عن الحق نَفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كُلِّفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا رُوّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة مايزيل الكرْب ويروّح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات.

(٥) فاظفر بذات الدِّين

الأصل في الزوجة أن تكون صالحة ذات دين، فإنها إن كانت ضعيفة الدِّين في صيانة نفسها وفرجها، أزْرت بزوجها وسوّدت بين الناس وجهه وشوّشت بالغيرة قلبه وتنغّص بذلك عيشه، فإن سلك سبيل الحمِيّة والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلّة الحميّة والأنفة.

(٦) ولجمالها

ما نُقل عن الحث على الدِّين وأن المرأة لا تُنكح لجمالها، ليس زاجرا عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدّين، فإنّ الجمال وحده في غالب الأمر يرغّب في النكاح ويهوّن أمر الدّين. ويدلّ على الالتفات إلى معنى الجمال، أن الألفة والمودّة تحصل به غالبا، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، واستحبّ النظر، ومعلوم أن النظر لا يَعرف الخُلق والدّين والمال، وإنما يعرف القبح من الجمال.

(٧) رويدا رويدا

ينبغي للزوج أن يتدرّج في تأديب الزوجة الناشز، فيقدّم الوعظ والتحذير والتخويف. فإن لم ينجح، ولّاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث، فإن لم ينجح ذلك، ضربها ضربا غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ولا يُدمي لها جسما ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه.

(٨) وفي أنفسكم!

مِن بدائع ألطاف الله، أن خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصِهرا، وسلّط على الخلق شهوة استبقى بها نسلهم قسْرا، ثم عظّم أمر الأنساب وجعل لها قدْرا، فحرّم بسببها السِّفاح وبالغ في تقبيحه ردْعا وزجْرا، وجعل اقتحامه أمرا إمْرا، وندب إلى النكاح وحثّ عليه استحبابا وأمرا. فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلّهم به هدما وكسرا، ثم بثّ بذور النطف في أراضي الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبرا.

(٩) رحمة الاختلاف

اختلف العلماء في فضل النكاح؛ فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلّي لعبادة الله، واعترف آخرون بفضله ولكن قدّموا عليه التخلّي لعبادة الله ما لم تَتُق النفس إلى النكاح توقانا يشوّش الحال ويدعو إلى الوقاع، وقال آخرون: الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة.



آداب الكسب والمعاش

(١) مزرعة الآخرة

الدنيا دار التمحل والاضطراب، والتشمّر والاكتساب، وليس التشمّر في الدنيا مقصورا على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها.

(٢) التجارة المذمومة

التجارة إما أن تُطلب بها الكفاية، أو الثروة، أو الزيادة على الكفاية؛ فإن طُلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا ليُصرف إلى الخيرات والصدقات، فهي مذمومة، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة.

(٣) الحلف بلا ضرورة

لا ينبغي للتاجر أن يحلف على بضاعته ألبتّة، فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغَموس وهو من الكبائر التي تذَر الديار بلاقع، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه، وقد أساء فيه، إذ الدنيا أخسّ من أن يُقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة.



(٤) التاجر الأمين

على البائع أن يُظهر جميع عيوب الـمَبيع، خفيّها وجليّها، ولا يكتم منها شيئا، فذلك واجب، إن أخفاه كان ظالما غاشا، والغش حرام. وكان تاركا للنصيحة في المعاملة، والنصح واجب. ومتى أظهر وجهَي الثوب وأخفى الثاني كان غاشا، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة، وكذلك إذا عرض أحسن فردَي الخف أو النعل أو أمثاله.

(٥) البرَكة البرَكة

الخيانة لا تزيد في المال، والصدقة لا تُنقِص منه، والدرهم الواحد قد يبارك الله فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان في الدنيا والدّين، والآلاف المؤلَّفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتمنّى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله.

(٦) استقيموا يرحمكم الله

كلّ مكلَّف هو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، والويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة، فلا ينفكّ عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة، إلا أنّ درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما، فلذلك تتفاوت مدّة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لا يبقى بعضهم إلّا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين.

(٧) القرينان

أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعا، فالعدل سبب النجاة، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يُعدّ من العقلاء مَن قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، لا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان.

(٨) نقطة نظام

متى دار الكلام بين المستقرض والمقرض، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسّطِين إلى مَن عليه الدَّيْن، فإنّ المَقرِض يقرض عن غِنى والمستقرض يستقرض عن حاجة، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر، فالبائع راغب عن السلعة يبغي ترويجها، والمشتري محتاج إليها..هذا هو الأحسن، إلا أن يتعدّى مَن عليه الدين حدّه، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعدّيه وإعانة صاحبه.

(٩) تجارة العقلاء

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه.

(١٠) هكذا يكون التاجر

تتم شفقة التاجر على دينه بسبعة أمور: الأوّل: حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة. الثاني: أن يقصد القيام بفرض من فروض الكفايات. الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة المساجد. الرابع: أن يلازم ذكر الله في السوق، فذكْر الله في السوق بين الغافلين أفضل. الخامس: أن لا يشتدّ في الحرص على السوق والتجارة. السادس: أن يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب. السابع: أن يراقب جميع مجاري معاملته.

(١١) فقه الكسْب

الصناعات والتجارات لو تُركت، بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكلّ وتكفُّل كل فريق بعمل، ولو أقبل كلّهم على صنعة واحدة لتعطّلت البواقي وهلكوا.

(١٢) فساد الزمان

أتى على الناس زمان، كان الرجل يدخل السوق ويقول: مَن ترون لي أن أعامل من الناس؟ فيُقال له: عامل مَن شئت. ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون: عامل مَن شئت إلا فلانا وفلانا. ثم أتى زمان آخر فكان يقال: لا تعامل أحدا إلا فلانا وفلانا. وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضا.

الحلال والحرام

(١) حاسبوا أنفسكم

كلما كان العبد أشدّ تشديدا على نفسه، كان أخفّ ظهرا يوم القيامة وأسرع جوازا على الصراط، وأبعد عن أن تترجّح كفّة سيئاته على كفّة حسناته. وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت درجات الورع، كما تتفاوت درجات النار في حقّ الظَّلَمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث.

(٢) الظَّلَمة الأوائل

الظَّلَمة من سلاطين العصر الأوّل، ولقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين، كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم عن غير سؤال ويتقلّدون الـمِنّة بقبولهم.

(٣) هدايا السلاطين

لا تسمح نفوس السلاطين بعطيّة؛ إلا لمن طمعوا في استخدامهم، والتكثّر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمّل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم، ولو لم يذلّ الآخذ نفسه لم يُنعَم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا.



(٤) وأعتزلكم

اعلم أن لك مع الأمراء الظلمة ثلاثة أحوال: الأولى: وهي شرّها، أن تدخل عليهم. والثانية: وهي دونها، أن يدخلوا عليك. والثالثة: وهي الأسلم، أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك، لأن مَن اعتزلهم سلم من إثمهم، ولكن لم يسلم من عذاب يعمّه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة.

(٥) أصل الفساد؟

الداخل على سلطان ظالم متعرِّض لأن يعصى الله تعالى؛ إمّا بفعله، وإمّا بسكوته، وإمّا بقوله، وإمّا باعتقاده. ومَن علم فسادا في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته، فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت، بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته. وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك وفسد الملوك بفساد العلماء.

(٦) البغض في الله

البغض في الله واجب، ومُحبّ المعصية والراضي بها عاص، ومَن أحبّ ظالما فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبته، وإن أحبّه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه.

(٧) وقلْن قولًا معروفا

تزكيةُ العاصي والثناء عليه إعانةٌ على المعصية وتحريكٌ للرغبة فيها، كما أن التكذيب والمذمّة والتقبيح زجرٌ عنها وتضعيفٌ لدواعيها، والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة.

(٨) الظلم ظلمات

المعصية تنقسم إلى: لازمة، ومتعدّية..

والفسق لازم لا يتعدّى، وكذا الكفر، أما معصية الولاة بالظلم، وهو متعدّ، فإنما يغلظ أمرهم لذلك، وبقدر عموم الظلم وعموم التعدّي يزدادون عند الله مقتا، فيجب أن يُزداد منهم اجتنابا ومِن معاملتهم احترازا.

(٩) وأَنفِقوا ممّا رزقناكم

باذل المال لا يبذله قطّ إلا لغرض، ولكن الغرض إمّا:

آجل كالثواب. وإمّا عاجل. والعاجل: إمّا مال، وإما فعل وإعانة على مقصود معين، وإما تقرُّب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته. والمحبة: إما المحبة في عينها، وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها.

(١٠) وأُولوا العلم

الجهل ليس بشرط في التصوّف عند مَن يعرف التصوّف، ولا يُلتفت إلى خرافات بعض الحمقى بقولهم: إن العلم حجاب.. فالجهل هو الحجاب، والعلم المذموم حجاب. وتفصيل الحلال والحرام إنما يتولّى بيانه كتب الفقه.

(١١) هذا أُهدِي إليّ!

القاضي والوليّ، ينبغي أن يقدّر نفسَه في بيت أمّه وأبيه، فما كان يُعطَى بعد العزل وهو في بيت أمه، يجوز له أن يأخذه في ولايته، وما يعلم أنه إنما يُعطاه لولايته فحرام أخْذه، وما أُشكِل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا؟ فهو شبهة فلْيجْتنبْه.

(١٢) وقِفوهم إنهم مسؤولون

الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض. والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض..

وإنه كما يقال للعالِم: لم خالفْت علمك؟

يقال للجاهل: لم لازمْت جهلك ولم تتعلّم بعد أن قِيل لك: طلب العلم فريضة على كل مسلم؟

آداب الألفة والأخوّة والصحبة

(١) حُسْن الخُلُق

الأُلفة ثمرة حسْن الخلُق، والتفرّق ثمرة سوء الخلُق، فحسْن الخلُق يُوجب التحابّ والتآلف والتوافق، وسوء الخلُق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومتى كان المثمِر محمودا كانت الثمرة محمودة، وحْسن الخلُق لا تَخفى في الدين فضيلته.

(٢) غايات الحبّ

الذي يُحَبّ: إمّا أن يُحَبّ لذاته لا ليُتوصَّل به إلى محبوب ومقصود وراءه، وإما أن يُحَبّ للتوصُّل به إلى مقصود، وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها، وإمّا أن يكون متعلّقا بالآخرة، وإمّا أن يكون متعلّقا بالله تعالى.

(٣) وحُبًّا لأنّك أهل لذاك

حبّ الله تعالى، تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يُتوقَّع في الآخرة من نعيمه، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدقّ ضروب المحبة وأعلاها. وكيفما اتفق حبّ الله، فإذا قوي تعدّى إلى كلّ متعلّق به ضربا من التعلّق، حتى يتعدّى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه، ولكن لفرط الحبّ يضعف الإحساس بالألم، والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم.

(٤) بين الرضا والسخط

مَن وافقك على غرض وخالفك في آخَر، فكُن معه على حالة متوسّطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودُّد إليه والتوحّش عنه، ولا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام مَن يوافقك على جميع أغراضك، ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة مَن خالفك في جميع أغراضك، وهكذا ينبغي أن يكون الأمر فيمن يطيع الله ويعصيه ويتعرّض لرضاه مرّة ولسخطه مرّة.

(٥) إن سعيكم لشتّى

المخالِف لأمر الله سبحانه لا يخلو: إمّا أن يكون مخالفا في عقَده (اعتقاده)، أو عمله. والمخالِف في العقَد: إمّا مبتدِع، أو كافر. والمبتدِع: إمّا داعٍ إلى بدعته، أو ساكت. والساكت: إمّا بعجزه، أو باختياره.

(٦) اِسْتَفْتِ قلبَك

الرفق والنظر بعين الرحمة إلى عصاة الخلق، نوع من التواضع. والعنف والإعراض، نوع من الزجر. والـمُستفتَى فيه القلب؛ فما تراه أميل إلى هواك ومقتضى طبعك، فالأوْلى ضدّه؛ إذ قد يكون استخفافك وعنفك، عن كِبر وعُجب والتذاذ بإظهار العلوّ والإدلال بالصلاح، وقد يكون رفقك عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض، وكل راغب في أعمال الدّين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق.



(٧) الصاحب ساحب

ينبغي أن يكون فيمن تُؤْثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلا، حَسَن الخلُق، غير فاسق، ولا مبتدِع، ولا حريص على الدنيا. أمّا العقل فهو رأس المال وهو الأصل، ولا خير في صحبة الأحمق، إذ إلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. وأمّا المبتدِع، ففي صحبته خطر سراية البدعة وتَعدّي شؤمها.

(٨) البشَر والشجَر

قيل: مثَل جُملة الناس كمثَل الشجر والنبات؛ فمنها ما له ظلّ وليس له ثمر، وهو مثل الذي يُنتَفع به في الدنيا دون الآخرة، فإنّ نفْع الدنيا كالظلّ سريع الزوال. ومنها ما له ثمر وليس له ظلّ، وهو مثَل الذي يَصلح للآخرة دون الدنيا. ومنها ما له ثمر وظلّ جميعا. ومنها ما ليس له واحد منها، كأمّ غيلان[1] تقطع الثياب ولا طعام فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب.

(٩) حقوق الأخوّة

عقْد الأخوّة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحقّ النكاح، فكذا عقد الأخوّة؛ فلأخيك حقّ في المال والنفس، وفي اللسان والقلب؛ بالعفو والدعاء، وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلّف والتكليف.

(١) أم غيلان: شجر السَّمُر، وهو من جنس السنط والشوك، وينمو في البادية

(١٠) ويُؤثِرون على أنفسهم

المواساة بالمال مع الأخوّة على ثلاث مراتب: أدناها: أن تُنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك. الثانية: أن تُنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك. الثالثة: وهي العليا، أن تؤْثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصدِّيقين ومنتهى درجات المتحابّين.

(١١) غيبة القلب

لو طلبْتَ منزَّها عن كلّ عيب، اعتزلْت عن الخلق كافة، ولن تجد مَن تصاحبْه أصلا، فما من أحد من الناس إلّا وله محاسنٌ ومَساو، فإذا غلبَت المحاسنُ المَساويَ فهو الغاية والمنتهى. والمؤمن الكريم أبدا يحضّرً في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والودّ والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوي والعيوب. وسوء الظن غيبة بالقلب، وهو منهيّ عنه أيضا.

(١٢) الحقد والحسد

الحَقود الحَسود يملأ باطنه بالخبث، ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه متى لم يجد له مجالا، وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويترشح الباطن بخبثه الدفين.. ومَن في قلبه سخيمة على مسلم، فإيمانه ضعيف، وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله تعالى.



(١٣) نعوذ بالله من الخزي

الله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره، فيُوقفه على ذنوبه سرًّا، وقد يدفع كتاب عمله مختوما إلى الملائكة الذين يحفّون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوما ليقرأه. وأمّا أهل المقت، فيُنادون على رؤوس الأشهاد، وتُستنطَق جوارحهم بفضائحهم، فيزدادون بذلك خزيا وافتضاحا.

(١٤) إهداء العيوب

الصفات الذميمة عقارب وحيات، وهي في الآخرة مُهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح، وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد. ومَن ينبّهك على فعل مذموم تعاطيتَه أو صفة مذمومة اتصفْت بها، لتزكّي نفسك عنها، كان كمن ينبّهك على حيّة أو عقرب تحت ذيلك وقد همّت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك، فما أشدّ حمقك!

(١٥) فقه النصيحة

ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقّه واحتمالك تقصيره، لا الاستعانة به والاسترفاق منه. واعلم أن العتاب في السرّ خير من القطيعة، والتعريض خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكلّ.



(١٦) كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾[١] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يُجرح الإنسان فلا يتألم، بل تنتهي إلى أن يصبر ويحتمل. وكما أنّ التألم بالجرح مُقتضَى البدن، فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن قلعه، ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه، فإنه يقتضي التشفّي والانتقام، وترك العمل بمقتضاه ممكن.

(١٧) الحبّ العابر للموت

معنى الوفاء: الثبات على الحبّ وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه. ومن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلّقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، فإنّ فرحه بتفقُّد مَن يتعلق به أكثر، إذ لا يدلّ على قوّة الشفقة والحب إلّا تعدّيهما من المحبوب إلى كل مَن يتعلق به.

(١٨) فلينظر أحدكم من يخالل

الناس ثلاثة: رجل تنتفع بصحبته. ورجل تقدر على أن تنفعه، ولا تتضرّر به، ولكن لا تنتفع به، وهذا لا تجتنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به. ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرّر به، وهو الأحمق، أو السيئ الخلق، وهذا ينبغي أن تتجنّبه.

(١) آل عمران ١٣٤

(١٩) في معيّة الله

مَن كان نظره إلى صحبة الخلْق، فتارة يعوجّ وتارة يستقيم. ومَن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا، فزيّن باطنة بالحبّ لله ولخلْقه، وزيّن ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده، فإنها أعلى أنواع الخدمة لله، إذ لا وصول إليها إلا بحُسن الخلُق، ويدرك العبد بحُسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة.

(٢٠) وصايا ثمينة

إذا أردتَ حسْن العشْرة: فكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفَي قصد الأمور ذميم. وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظّما مرتّبا، واسكت عن المضاحك، ولا تحدِّث عن إعجابك بولدك ولا تصنيفك ولا سائر ما يخصّك، ولا تلحّ في الحاجات، ولا تتصنّع تصنّع المرأة في التزيّن ولا تتبذّل تبذّل العبد.

(٢١) لكلّ مقام مقال

إن قرّبك سلطان، فكن منه على مثل حدّ السّنان، فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبيّ، وكلّمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية، ولا يحملنّك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، فإنّ سقطة الداخل بين الملك وأهله سقطة لا تُنعَش وزلّة لا تُقال. وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرمَ مِن عِرضك.

(٢٢) سُلَّم الحقوق

القرابة لها حق ولكن حقّ الرحم الـمَحرم آكد، وللمَحرم حقّ ولكن حقّ الوالديْن آكد. وحقّ الجار يختلف بحسب قربه من الدار وبُعده، ويظهر التفاوت عن النسبة، حتى إن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن، لاختصاصه بحقّ الجوار في البلد.

(٢٣) الخليل؟

الصداقة تتفاوت؛ فإنها إذا قويت صارة أخوّة، فإن ازدادت صارت محبّة، فإن ازدادت صارت خلّة. والخليل أقرب من الحبيب؛ فالمحبة تتمكّن من حبّة القلب، والخلّة ما تتخلّل سرّ القلب، فكلّ خليل حبيب وليس كلّ حبيب خليل، وليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلّة درجة.

(٢٤) اِتّهِم نفسَك قبل غيرك

لا تستصغر أحدا حيًّا كان أو ميتا فتهلك، لأنك لا تدري لعله خير منك؟ فإنه وإن كان فاسقا، فلعله يُختم لك بمثل حاله ويُختم له بالصلاح؟ ولا تنظر بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فإنّ الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها، ومتى عظُم أهل الدنيا في نفسك فقد عظّمت الدنيا، فتسقط من عين الله.



آداب العزلة

(١) ثمرة العزلة

فوائد العزلة تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية. الدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة. أما الدنيوية فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة كتمكّن المحترف في خلوته، وإلى ما يخلص من محذورات يتعرّض لها بالمخالطة.

(٢) يا مُنجّي من المهالك

عادة الناس كافّة، التمضمض بأعراض الناس والتفكّه بها والتنفّل بحلاوتها، وهي طعْمتهم ولذّتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة. فإن خالطتَهم ووافقْتَهم أثِـمْت وتعرّضت لسخط الله، وإن سكتّ كنت شريكا فالمستمع أحد المغتابيْن، وإن أنكرْت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك وربما انتهوا إلى الاستخفاف بك والشتم.

(٣) الوقوع في العلماء

مَن عرف من عالِـم زلّة، حُرّم عليه حكايتها لِعلّتيْن: إحداهما، أنها غيبة. والثانية وهي أعظمها، أن حكايتها تهوّن على المستمعين أمر تلك الزلّة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية، فإنه متى وقع فيها واستُنكر عليه، دفع الاستنكار وقال: كيف يُستبعَد هذا منّا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعبّاد.

(٤) أيّهما أفيد؟

إن وجدتَ جليسا يذكّرك اللهَ رؤيتُه وسيرتُه، فالزمه ولا تفارقه، فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن. وتَحقَّق أن الجليس الصالح خير من الوحدة، وأن الوحدة خير من جليس السوء. وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة والخلطة بأن إحداهما أوْلى، إذ كلّ مفصّل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم، خلْف من القول محْض، ولا حقّ في المفصَّل إلّا التفصيل.

(٥) وهديناه النجديْن

مَن شاهد زينة الدنيا؛ إمّا أن يَقوَى دينُه ويقينُه، فيصبر إلى أن يتجرّع مرارة الصبر. أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا، ويهلَك في الدنيا بالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، إذ ليس كل من يطلب الدنيا تتيسّر له. ويهلك في الآخرة بإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرّب إليه.

(٦) سبع فوائد

فوائد المخالطة والدواعي إليها سبع:

التعليم والتعلُّم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدّب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها.

(٧) المخالَطة

قال أكثر التابعين باستحباب المخالَطة واستكثار الإخوان والتآلف والتحبُّب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاونا على البر والتقوى، ومال إلى هذا الشافعي وأحمد بن حنبل وابن المبارك وسعيد بن المسيّب وجماعة.

(٨) آفات ومحذورات

من المحذورات التي قد يُتعرَّض لها بالاختلاط: النظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها، طمع المرء في الناس وطمع الناس فيه، وانكشاف ستر المروءة بالمخالطة، والتأذِّي بسوء خُلُق الجليس في مِرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته.

(٩) غاية العبادات

من يتيسر له بدوام الذكر الأُنس بالله، أو بدوام الفكر التحقُّق في معرفة الله، فالتجرُّد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرطٌ في كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

(١٠) الداء العضال

الرياء هو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا.

(١١) مُسارَقة الطبع؟

مسارقة الطبع مما يُشاهَد من أخلاق الناس وأعمالهم داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدّة مع كونه منكرا عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته، لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله، إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع، فيسقط وقْعه واستعظامه له.

(١٢) أحوال الصحابة والتابعين

من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزّه عن الدنيا، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار، وما دام يرى نفسه مقصّرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماما للاقتداء.

آداب السّفَر

(١) سَفَرَان

السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه. والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن المستقَرّ والوطن إلى الصحاري والفلوات، وسفر بسيْر القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات. وأشرف السفَريْن السفَر الباطن.

(٢) الرحمن الرحيم

لا يُتصوّر فراغ القلب في الدنيا من مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يُتصوَّر تخفيفها وتثقيلها، وقد نجا المخفّون وهلك المثقِلون، والحمد لله الذي لم يعلّق النجاة بالفراغ المطلَق، بل قبل المُخِفّ بفضله وشمله بسعة رحمته، والمُخِفّ هو الذي ليست الدنيا أكبر همه، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه.

(٣) وعلى نيّاتكم ترزقون

كم من ذامّ نفسه وهو لها مادح بعين ذمّه، فذمّ النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود، وأما الذم في الملأ فهو عين الرياء، إلا إذا أورده إيرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ومعترِف بها.



(٤) بالأسفار يُعرف الأحرار

في السفَر تخرج خبايا الباطن، ومَن صلُح لصحبة السفر صلُح لصحبة الحضَر، وقد يَصلُح في الحضَر مَن لا يَصلُح في السفَر. والسفَر من أسباب الضجَر، ومَن حَسُن خُلُقه في الضجر فهو الحسَن الخُلق، وإلّا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلّما يظهر سوء الخُلُق. ومتى كثر المدبّرون فسدت الأمور في الحضَر والسفَر، لهذا وجب التأمير ليجتمع الشتات.

(٥) سبْع رُخَص؟

السفر يفيد في الطهارة رخصتين: مسح الخفّين والتيمّم. وفي صلاة الفرض رخصتيْن: القصْر والجمْع. وفي النفل رخصتيْن: أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشيا. وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر..فهذه سبع رخص.

(٦) علّة السفر

مَن ليس له في السفر زيادة دين فقد أذلّ نفسه، وإلا فعزّ الدّين لا يُنال إلا بذلّة الغربة. وليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه، حتى يعز في هذه الغربة ولا يذلّ، فإن مَن اتبع هواه في سفره ذلّ لا محالة إما عاجلا وإما آجلا.

آداب السّماع والوَجْد

(١) الوجْد؟

يُثمر السماع حالة في القلب تسمّى الوجْد، ويُثمر الوجد تحريك الأطراف، إمّا بحركة غير موزونة تُسمّى الاضطراب، وإما بحركة موزونة تُسمّى التصفيق والرقص.

(٢) التقليد قد لا يفيد

مَن طلب الحقّ في التقليد، فمهما استقصى تعارضَت عنده الأقاويل، فيبقى متحيّرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهّي، وكل ذلك قصور. بل ينبغي أن يطلب الحقّ بطريقه، وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة.

(٣) شعار الأشرار

الأوتار والمزامير ورَد الشرع بالمنع منها، لا للذّتها، إذْ لو كان للذّة لقِيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان. ولكن حرّمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها، المبالغة في الفطام عنها، فحـرُّم معها ما هو شعار أهل الشرب، وهي الأوتار والمزامير، وكان تحريمها كما حُرّمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدّمة الجماع، وحرّم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسّوْأتيْن، وحُرّم قليل الخمر وإن كان لا يُسكِر لأنه يدعو إلى السُّكْر.

(٤) حكْم الغناء؟

مَن لم يحرّكه السماع فهو ناقص مائل عن حد الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجِمال والطيور بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب، لم يَـجُز أن يُحكَم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات.

(٥) إلى عرفات الله

الحج قُربة، والشوق إليه محمود، والتشويق إليه بكل ما يشوقه محمود. وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه ويزينه بالسجع ويشوّق الناس إلى الحج، يجوز لغيره ذلك في نظم الشعر، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب، وإذا أضيف إليه صوت طيّب ونغمات موزونة زاد وقعه، وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار.

(٦) الحزن المحمود

الحزن المحمود، هو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه. وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير والتدارك، ولأن المفضي إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يَحرُم على الواعظ الطيب الصوت، أن ينشد على المنبر الأشعار المحزِنة المرقِّقة للقلب، ولا أن يبكي ويتباكي ليتوصّل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه.



(٧) الجمال الباطن

كل جَمال محبوب عند مدرِك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحب الجمال. ولكن الجمال إن كان بتناسُب الخِلْقة وصفاء اللون، أُدرِك بحاسة البصر. وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلوّ الرتبة وحُسْن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة، أُدرِك بحاسة القلب.

(٨) والشعراء يتّبعهم الغاوون

الشِّعر إن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ أو على الصحابة رضوان الله عنهم، فسماع ذلك حرام بألحان وبغير ألحان، والمستمع شريك للقائل. وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال. وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز.

(٩) أُمّ المعارك

القتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل، إلا في قلب قد فتحه أحد الجنديْن واستولى عليه بالكلّيّة، وغالب القلوب قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها.

(١٠) لا صغيرة مع إصرار

المواظبة على اللهو جناية، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك المباحات بالمداومة تصير صغيرة، ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة.

(١١) ساعة وساعة

اللعب يُباح لما فيه من ترويح القلب، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات بالجدّ في الدنيا كالكسب والتجارة، أو في الدين كالصلاة والقرآن، واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد، كاستحسان الخال على الخدّ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوّهته! فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة، فما كلّ حُسْن يحسن كثيره ولا كلّ مباح يباح كثيره.

(١٢) روِّحوا القلوب

القلوب إذا كرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجدّ؛ فالمواظب على التفقّه مثلا، ينبغي أن يتعطّل يوم الجمعة، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام. والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات، ينبغي أن يتعطّل في بعض الأوقات، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات. ولا يصبر على الجد المحض إلا الأنبياء عليهم السلام.

(١٣) الغلَط الـمَحْض

مَن ادّعى الحلول والاتحاد وقال: أنا الحق، وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلفت فيه عباراتهم، هو غلط محض يضاهي مَن حكم على المرآة بصورة الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة مقابلها!

(١٤) أفلا يتدبّرون!

لا يخلو صاحب القلب عن وجْد عند سماع القرآن، فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلا، فـمثله ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]، بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها.

(١٥) البدعة؟

الموافَقة من حسن الصحبة والمعاشرة، والمخالَفة موحشة، ولكل قوم رسم، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم كما ورد في الخبر، لا سيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطييب القلوب بالمساعدة. وقول القائل: إن ذلك بدعة لم تكن في الصحابة؟ فليس كل ما يُحكَم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنّة مأثورة.

(١) البقرة ١٧١

(١٦) توقير القرآن

القرآن جدّ كلّه عند كافّة الخلْق، ولا يجوز أن يُمزَج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة، بل ينبغي أن يوقَّر فلا يُقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن، ولا في حال الجنابة، ولا على غير طهارة، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم.

(١٧) لا يأتون بمثله

القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى، فإن البيت الغريب يهيّج منها ما لا تهيّج تلاوة القرآن، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع، ولكونه مشاكِلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجِز لا يدخل في قوّة البشر لعدم مشاكلته لطبعه.

(١٨) أرباب القلوب

كل ما يوجد عقيب السماع في النفس فهو وجْد، فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجْد، والحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن كثيرة، وما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة والتابعين كثير؛ فمنهم من صُعق، ومنهم من بكى، ومنهم من غُشِي عليه، ومنهم من مات في غشيته. وكذلك الصوفية.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) قُطب الدِّين

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي القطب الأعظم في الدين، والمهمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوي بساطه وأُهمل علمه وعمله، لتعطّلت النبوّة واضمحلّت الديانة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

(٢) سُحقا سُحقا

لا يجوز دخول دُور الظلمة والفسقة، ولا حضور المواضع التي يُشاهد فيها المنكر ولا يُقدر على تغييره، ولا يجوز مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بالعجز.

(٣) الـمُحتسِب؟

الحِسبة عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى المحتسِب أن يكون مكلّفا مسلما قادرا، فيخرج منه المجنون والصبيّ والكافر والعاجز. ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة.

(٤) لا تخصيص

شرَط قومٌ للمحتسِب أن يكون مأذونا من الإمام والوليّ، ولم يُثبتوا للآحاد من الرعية الحِسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار تدلّ على أنّ كلّ مَن رأى منكرا فسكت عليه عصى، إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكّم لا أصل له.

(٥) وا عجباه!

العجيب أن الروافض قالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يُكلّموا، بل جوابهم أن يُقال لهم إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دمائهم وأموالهم: إنّ نُصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من أيدي مَن ظلمكم نهْي عن المنكر، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق لأنّ الإمام الحقّ بعد لم يخرج.

(٦) شروط لا بدّ منها

آداب المحتسِب ثلاث: العِلم والورع وحُسْن الخُلُق، وبهذه الصفات الثلاث تصير الحسبة من القرُبات، وبها تندفع المنكَرات، وإن فُقدت لم يندفع المنكَر، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكَرة لمجاوزة حدّ الشرع فيها.



(٧) فتنة المال

في المال منكَران: أحدهما الإضاعة، والآخَر الإسراف. فالإضاعة: تفويت مال بلا فائدة يُعتدّ بها؛ كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض، وإلقاء المال في البحر، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرّمة شرعا. أمّا الإسراف: فقد يُطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة.

(٨) بلِّغوا

الإنسان لا يُولد عالما بالشرع، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل مَن تعلّم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها، ولعَمري الإثم على الفقهاء أشدّ لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق، لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش، فهم قد تقلّدوا أمرا لا بدّ منه في صلاح الخلق، وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله ﷺ، فالعلماء هم ورثة الأنبياء.

(٩) حُبّ الدنيا

قَيّدت الأطماعُ ألسنَ العلماء فسكتوا، وإن تكلّموا لم تساعد أقوالُهم أحوالَهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حقّ العلم لأفلحوا. ومَن استولى عليه حبّ الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟

آداب المعيشة وأخلاق النبوّة

(١) عناوين دالّة

آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزيّنها وتجلّيها وتبدّل بالمحاسن مكارهها ومَساويها، ومَن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهيّة لم يُفِض على ظاهره جمال الآداب النبوية.

(٢) هل من مجيب؟!

النبيّ رجل أمّي لم يمارس العلم، ولم يطالع الكتب، ولم يسافر قطّ في طلب علم، ولم يزَل بين أظهر الجهّال من الأعراب يتيما ضعيفا مستضعَفا، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم؟ فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوّة لولا صريح الوحي؟

(٣) الغباء الأعظم

أَعظِم بغباوة مَن ينظر في أحوال النبي ﷺ، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه؟!

(٤) خُلُقُه القرآن

كان ﷺ كثير الضراعة والابتهال أن يزيّنه الله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهمّ حسّن خَلْقي وخُلُقي»، ويقول: «اللهم جنِّبْني منكَرات الأخلاق»، فاستجاب الله دعاءه فأنزل عليه القرآن وأدّبه به فكان خلقه القرآن، ثم منه يشرق النور على كافّة الخلْق.

(٥) معجزة القرآن

ليس لنبيّ معجزة باقية سواه ﷺ، إذ تحدّى بها بلغاء الخلق وفصحاء العرب، وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم، وبها منافستهم ومباهاتهم، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحُسْنه، ثم انتشر بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر، فلم يقدر أحد على معارضته.

(٦) مجالس النبيّ

كان ﷺ إذا جلس مع الناس إن تكلّموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدّثوا في طعام أو شراب تحدّث معهم، وإن تكلّموا في الدنيا تحدّث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم، وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلّا عن حرام.

(٣)
رُبع المُهلِكات



عجائب القلب

(١) الراعي؟

إنما الجوارح أتباع وخدَم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة.

(٢) الأساس؟

معرفة القلب وحقيقة أوصافه، أصلّ الدين وأساس طريق السالكين؛ فهو حقيقة الإنسان، وهو المدرِك العالِم العارِف، وهو المخاطَب والمعاتَب والمطالَب.

(٣) فألهمها فجورها وتقواها

النفس إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات، سُمّيت النفس المطمئنة. وإن تركت الاعتراض وأذعنَت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، سُمّيت النفس الأمّارة بالسوء.

(٤) حزب الله

للقلب جند هو العلم والحكمة والتفكّر، وحقّه أن يستعين بهذا الجند -فإنه حزب الله تعالى- على جندَي الغضب والشهوة، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان.

(٥) كلب الفارس وفرَسه؟

مَثل العاقل مَثل فارس متصيِّد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه؛ فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروَّضا وكلبه مؤدَّبا معلَّما، كان جديرا بالنجاح. ومتى كان أخرق والفرس جموحا والكلب عقورا، فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب.

(٦) قل هو من عند أنفسكم

أنوار العلوم لم تُحتجَب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعِم، ولكن حُجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى، كالأواني التي ما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء.

(٧) خاصية الإنسان؟

الإنسان من حيث يتغذّى وينسل فنبات، ومن حيث يحسّ ويتحرك فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

(٨) صندوق السعادة؟

جملة السعادة؛ أن يجعل الإنسان لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقرّه، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء خدَمه.

(٩) إنّ الحسنات يُذهبْن السيّئات

مَن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها، لم يظلَم قلبه ولكن يَنقُص نوره، كالمرآة التي يُتنفَّس فيها ثمّ تُمسَح، ويُتنفَّس ثم تُمسَح، فإنها لا تخلو من كدورة. فليست المرآة التي تُدنَّس ثم تُمسح بالمصقلة، كالتي تُمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق.

(١٠) الحضرة الربوبية

السماوات والأرض عبارة عن عالَم الملك والشهادة، وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف، فهو متناه على الجملة. وأمّا عالَم الملكوت، وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر، فلا نهاية له. وجملة عالَم الملك والملكوت إذا أُخذت دفعة واحدة، تُسمّى الحضرة الربوبية.

(١١) المؤمنون حقّا

الإيمان ثلاث مراتب:

(المرتبة الأولى) إيمان العوامّ، وهو إيمان التقليد المحض.

(والثانية) إيمان المتكلّمين، وهو ممزوج بنوع استدلال.

(والثالثة) إيمان العارفين، وهو المشاهَد بنور اليقين.

(١٢) نور المعرفة

مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها، تصفية القلب وتزكيته، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني إشراق نور المعرفة.

(١٣) عيْن النفْس؟

البصيرة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدرِكة، وهي كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضرّ على الفارس من عمى الفرس، بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر.

(١٤) ويعلّمكم الله

العلوم التي تحلّ في القلب تنقسم إلى عقلية وشرعية، والعقلية تنقسم إلى ضرورية فطرية ومكتسَبة، والمكتسَبة إلى دنيوية وأخرويّة، والشرعية تحصل بتعلّم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيها.

(١٥) الغذاء والدواء

العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يَستضرّ بالغذاء متى فاته الدواء، ومَن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العلوم الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية، استضرّ بها كما يستضرّ المريض بالغذاء.

(١٦) حملة الرسالات

الجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين، لا يكاد يتيسّر إلا لمن رسّخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم، وهم الأنبياء المؤيَّدون بروح القدس، المستمِدّون من القوّة الإلهيّة التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها.



(١٧) وأخلصوا دينهم لله

الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلّم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبرِّي من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال على الله تعالى، فمَن كان لله كان الله له.

(١٨) يفتح الله ما يشاء

علوم الأولياء والأنبياء تأتي من داخل القلب من الباب المنفتحِ إلى عالم الملكوت. وعلوم العلماء والحكماء تأتي من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالَم الملك.

(١٩) أنوار المعارف

لا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وتتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم.

(٢٠) لا يُعجِزه شيء

يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس، والاعتبار بالمشاهدات، حتى يمتلئ علما. ويمكن أن تُسدّ هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغضّ البصر، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه، حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

(٢١) قل هو الله أحد

اعلم أنّ مبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرّك الرغبة، والرغبة تحرّك العزم، والعزم يحرّك النية، والنية تحرّك الأعضاء. واعلم أنّ الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلّا الله، فإنه فردٌ لا مقابل له، وواحدٌ خالقٌ للأزواج كلها.

(٢٢) نعوذ بالله من الخِذلان

الخواطر المحرِّكة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشرّ أعني إلى ما يضرّ في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة، والخاطر الثاني المحمود يُسمّى إلهاما، والخاطر الأوّل المذموم يُسمّى وسواسا. والخاطر الداعي إلى الخير يُسمَّى ملَكا، والخاطر الداعي إلى الشرّ يُسمَّى شيطانا، واللُّطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يُسمّى توفيقا، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يُسمّى إغواء وخذلانا.

(٢٣) متقابلات

الملَك خلْقٌ خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، والشيطان خلْقٌ شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشرّ والأمر بالفحشاء. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملَك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجّح أحدهما على الآخَر، وإنما يترجّح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها.

(٢٤) معركة القلب

التطارُد بين جندَي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم كالتطارُد بين الليل والنهار وبين النور والظلام، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، وأكثر القلوب فتحتْها جنود الشياطين وتملكتْها، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العجلة واطّراح الآخرة.

(٢٥) علم ينفع وجهل لا يضرّ

ينبغي للعبد أن يسأل عن سلاح الشيطان ليدفعه عن نفسه، وذلك كافٍ للعالَمين، أمّا معرفة ذاته وصفاته وحقيقته، فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات ولا يُحتاج في علم المعاملة إلى معرفته.

(٢٦) تلبيس إبليس

لإبليس تحت الخير تلبيسات، وتلبيساته من هذا الجنس لا تتناهى، وبها يَهلك العلماءُ والعبّاد والزهّاد، والفقراء والأغنياء، وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشرّ ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

(٢٧) الهادي إلى سواء السبيل

مَثل العبد كالمسافر في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة، فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة، والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفَّى بالتقوى، والشمس المشرقة هي العلم الغزير المستَفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله.



(٢٨) غول العقل؟

من أبواب الشيطان العظيمة، الغضب، فهو غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان، ومتى غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبيّ بالكرة.

(٢٩) في التأنّي السلامة

ينبغي للأعمال أن تكون بعد تبصرة ومعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمّل وتمهّل، والعجلة تمنع ذلك، وعند الاستعجال يروّج الشيطان شرّه على الإنسان من حيث لا يدري.

(٣٠) مخاصمة

كل مَن ادّعى مذهب إمام وليس يسير بسيرته، فذلك الإمام خصمه يوم القيامة، يقول له: كان مذهبي العمل دون حديث اللسان، فما بالك خالفْتني في العمل ثم ادّعيت مذهبي كذبا؟!

(٣١) حدود العقل

مِن أبواب الشيطان، حمْل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحّروا فيه، على التفكّر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم، حتى يشكّكهم في أصل الدّين.

(٣٢) حذار حذار

أشدّ الناس حماقة، أقواهم اعتقادا في عقل نفسه، وأثبتهم عقلا أشدّهم اتهاما لنفسه، ومَن تكلّم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم، وقع في الكفر من حيث لا يدري.

(٣٣) كل إناء بما فيه ينضح

المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب. والمؤمن سليم الصدر في حقّ كافّة الخلق، بينما الأشرار لا يظنّون بالناس كلّهم إلّا الشرّ.

(٣٤) لعلّكم تفلحون

حقيقة الذكر لا تتمكّن من القلب، إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا كان الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب ولا يدفع سلطان الشيطان.

(٣٥) الذِّكْر الفعّال

الذكر دواء، ومتى نزل قلبا فارغا عن غير الذكر، اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة.

(٣٦) أربعة

للقلب قبل العمل بالجارحة أربع أحوال: الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل بهيجان الطبع، وهذان لا يدخلان تحت الاختيار. ثم الاعتقاد، ثم الهمّ أو النية والقصد.

(٣٧) فـمَن هَمّ بحسَنة..

الهمّ بالفعل مؤاخَذ به، فإن ترك الفعل خوفا من الله تعالى وندما على همّه، كُتبت له حسنة. وإن تعوّق الفعل بعائق أو تركه بعذْر لا خوفا من الله تعالى، كُتبت عليه سيئة، لأن الهمّ بالفعل اختياري لا اضطراري.

(٣٨) مُحال!

الخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد، ولكن الخلاص منه عمرا طويلا بعيد جدّا، ومَن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع أن يتخلّص من الشيطان، كان كمن انغمس في العسل وظن أنّ الذباب لا يقع عليه، وهذا محال.

(٣٩) حائط الصدّ

القلب هدف يُصاب على الدوام من كلّ جانب، ولا يكون قط مهمَلا، فتراه يكون متنازَعا في الخير بين ملَكيْن، وتارة في الشرّ بين شيطانيْن، وتارة في الخير والشرّ بين ملَك وشيطان.

(٤٠) دخان الهوى

يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا تقدر على النظر.

رياضة النفس

(١) قوانين العلاج

مهما اشتدّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلّا فوْت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوْت الحياة الباقية أوْلى، وهذا النوع من الطب واجب تعلّمه على كل ذي لبّ، إذ لا يخلو قلب من أسقام.

(٢) صورتان؟

الإنسان مركَّب من جسد مدرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدرَك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إمّا قبيحة وإما جميلة، والنفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرَك بالبصر.

(٣) ما الخُلُق؟

الخُلُق: هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة..

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سُمِّيَت خُلقا حسَنا، وإن كان الصادر عنها أفعال قبيحة سُمّيت خُلُقا سيّئا.

(٤) رأس الأخلاق؟

العِلم: درْك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحقّ والباطل في الاعتقاد، وبين الجميل والقبيح في الأفعال..فإن صلحت قوّته، أثمرَت الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسَنة.

(٥) أحاسنكم أخلاقا؟

الخُلُق هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حُسن الصورة الظاهرة مطلقا لا بد لها من حُسْن الجميع، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسْن في جميعها حتى يتم حُسْن الخُلق، وهي: قوّة العلم، وقوّة الغضب، وقوّة الشهوة، وقوّة العدل بين هذه القُوى الثلاث.

(٦) الكمال في الاعتدال

إن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سُمّيت تهوّرا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سُمّيت جُبنا وخورا.

وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة سُمّيت شرَها، وإن مالت إلى النقصان سُمّيت جمودا.

أمّا الحكمة فيُسمّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثا وجريرة، ويُسمّى تفريطها بلها.



(٧) الحمق والجنون؟

الفرق بين الأحمق والمجنون؛ أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد من جهة الوصول إلى الغرض، أما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يُختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا.

(٨) وإنك لعلى خلق عظيم

أمّهات محاسن الأخلاق هي فضائل أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفّة، والعدل، والباقي فروعها.. ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها إلّا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه.

(٩) القوّة العصيّة على التغيير؟

قوّة الشهوة والغضب والتكبّر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوّة الشهوة، فإنها أقدم وجودا، إذ الصبيّ في مبدأ الفطرة تُخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يُخلق له الغضب، وبعد ذلك يُخلق له قوة التمييز.

(١٠) إنما الطبع بالتطبُّع

مَن أراد أن يحصّل لنفسه خُلُقا، فطريقه أن يتكلّفه، ولا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلُّفا، مجاهدا نفسه فيه، حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسّر عليه.

(١١) لا إفراط ولا تفريط

الشهوة خُلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجِبلّة، وليس المطلوب إماطتها بالكلية، بل ردّها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. وكذلك المطلوب في صفة الغضب حُسن الحميّة لتخلو عن التهوّر والجبن معا.

(١٢) عمرا مديدا وعملا سديدا

الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت.

(١٣) يحبّهم ويحبّونه

كلّ قلب مال إلى حبّ شيء سوى الله تعالى، فلا ينفكّ عن مرض بقدر ميله، إلّا إذا كان أحبّ ذلك الشيء لكونه معينا على حبّ الله تعالى وعلى دينه، فعندها لا يدلّ ذلك على مرض.

(١٤) علاقة تبادليّة

من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، أعني النفس والبدن، أن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرّك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب.

(١٥) غاية الفضيلة

الأخلاق الحسنة، تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم، ومَن تظاهرت في حقّه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلُّما، فهو في غاية الفضيلة.

(١٦) فقوِّم النفْسَ بالأخلاق تستقِم

كما أن البدن في الابتداء لا يُخلق كاملا وإنما يَكمل ويَقوى بالنشؤ والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

(١٧) دواء الرذائل

الرذيلة التي هي مرض القلب، علاجها بضدّها؛ فيُعالَج مرض الجهل بالتعلُّم، ومرض البخل بالتسخِّي، ومرض الكِبر بالتواضع، ومرض الشَّرَه بالكفّ عن المُشتهَى تكلُّفا.

(١٨) رياضة الـمُريد

كما أن الطبيب لو عالج المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن يَنظر في مرض المريد وفي حاله وسنّه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته.

(١٩) وظيفة القلب؟

كلّ عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذّر عليه فعله الذي خُلق له، فلا يصدر منه أصلا، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. ومرض القلب، في تعذُّر فعله الذي خُلق لأجله، وهو العلم والحكمة وحبّ الله تعالى وعبادته والتلذّذ بذكره.

(٢٠) علامة الحُبّ

مَن عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئا، وعلامة المعرفة المحبّة، فمن عرف الله تعالى أحبّه، وعلامة المحبة أن لا يؤْثِر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات.

(٢١) مرض عُضال

مرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه، صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دون مخالفة الشهوات نزع الروح، ومَن وجد في نفسه قوة الصبر، لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه.

(٢٢) ثمّ استقِم

الصراط المستقيم في الدنيا أدقّ من الشَّعر وأحدّ من السيف، ومَن استوى عليه، جاز على مثله في الآخرة، ولأجل عُسْر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرّة «اهدنا الصراط المستقيم».



(٢٣) ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها

مَن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق: الجلوس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ويحكّمه في نفسه، أو يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا ينصّبه رقيبا عليه، ويستفيد من ألسنة أعدائه، ويخالط الناس ويتفقّد في نفسه ما يذمّه من غيره.

(٢٤) السرّ الأكبر؟

حاصل رياضة النفس وسرّها، أن لا تتمتع بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه، بل يقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط.

(٢٥) صعوبة البداية وحلاوة النهاية

الناس لا تأنس بذكر ربها، إلّا إذا فُطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أوّلا ليُحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عُوّدت الذكر حتى يغلب عليها الأنس به عوضا عن الأنس بالدنيا والشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعّم به في النهاية.

(٢٦) موت القلب

الناس قد تفرح بالتنعّم في الدنيا حتى تصير ثملة كالسكران، وذلك الفرح سمّ قاتل يسري في العروق، فيُخرج من القلب الخوف وذكر الموت وأهوال القيامة، وهذا موت القلب.



(٢٧) أمانة التربية

الصبيّ أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة نفيسة ساذجة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه وسعد، وشاركه في ثوابه أبوه وكلّ معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشرّ وأُهمل إهمال البهائم شقي، وكان الوِزر في رقبة القيّم عليه والواليّ له.

(٢٨) مأزق!

المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهُداة والمذكِّرين والعلماء بالله تعالى، ومتى كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا، امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة.

(٢٩) سدود وجب تحطيمها

السدّ بين المريد وبين الحقّ أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية. وإنما يُرفع حجاب المال بالبذل، ويرتفع حجاب الجاه بالتواضع. ويرتفع حجاب التقليد بترك التعصّب للمذاهب، إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معيّن أصلا. أما حجاب المعصية فلا يرفعه إلّا التوبة.

كسر الشهوتيْن

(١) شرّ وعاء

البطن على التحقيق هي ينبوع الشهوات ومنبع الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرْج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدّة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسّع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسَدات.

(٢) رقِّق بالصيام قلبَك

كم من ذِكْر يجري على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذّ به ويتأثّر، حتى كأنّ بينهما حجابا من قسوة القلب، وقد يرقّ في بعض الأحوال فيعظم تأثّره بالذكر وتلذّذه بالمناجاة، وخلوّ المعدة هو السبب الأظهر.

(٣) تَناكَحوا

شهوة الوقاع سُلّطت على الإنسان لفائدتين: إحداهما: أن يدرك لذّته فيقيس به لذّات الآخرة. والثانية: إبقاء النسل ودوام الوجود. ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تُضبط ولم تُقهر ولم تُرد إلى حدّ الاعتدال.

(٤) حقّ البطن

على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف:

أن لا يأكل إلّا حلالا، فإنّ العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار. وتبقى ثلاث وظائف هي: تقدير قدْر الطعام في القِلة والكثرة، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة، وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتهَيات وتركها.

(٥) مركز الأمان

الشهوات محيطة بالإنسان مثل نملة أُلقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبّه بالملائكة في الخلاص، فأشبه أحواله بهم البعد، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط، فصار الوسط مطلوبا في جميع الأحوال المتقابلة.

(٦) قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم

العين مبدأ الزنا، فحفظها مهمّ، وهو عسير من حيث إنه قد يُستهان به ولا يَعظُم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ. فإنه إن حقّق النظر فاستحْسن، ثارت الشهوة وعجز عن الوصول، فلا يحصل إلا التحسُّر. وإن استقبح، لم يلتذّ، وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه. فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألّم وعن تحسُّر.

آفات اللسان

(١) واسع المدى عظيم الصدى

كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحقّ وإما باطل، ولا شيء إلا والعلم متناوَل له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فالعين لا تصل إلى غير الألوان، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وهكذا سائر الأعضاء.

(٢) أعظم آلات الإنسان خيرا أو شرّا

عِلم ما يُحمد فيه إطلاق اللسان أو يُذمّ، غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على مَن عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه، وإنه أعظم آلة الشيطان في الاستغواء، صغير جِرمه، عظيم طاعته وجُرمه.

(٣) أَمسِك عليكَ لسانَك

الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر، فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران. وبهذا سقط ثلاثة أرباع الكلام، وبقي ربع، وفيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء وغيره.

(٤) مِن الله يُدنيك ترْك ما لا يَعنيك

الكلام في المعاصي مما لا يحل الخوض فيه، حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني، فهو ترك الأَوْلى، ولا تحريم فيه. ومَن يُكثر الكلام فيما لا يعني لا يُؤمَن عليه الخوض في الباطل، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، ولا مخلص منها إلّا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

(٥) شهوة الـمِراء

الباعث على المراء والجدال هو الترفّع بإظهار العلم والفضل، والتهجّم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس وصفتان مذمومتان مهلكتان، وهذا مجاوز حدّ الكراهة، بل هو معصية متى حصل منه إيذاء الغير.

(٦) المتشدّقون والمتفيقهون

مقصود الكلام، التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنّع مذموم، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فالمقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها. أما المحاولات لقضاء الحاجات، فلا يليق بها السجع والتشدّق والتكلّف المذموم، فباعثه الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

(٧) أدب القوْل

الفُحش هو التعبير عن الأمور المستقبَحة بالعبارات الصريحة، إما بقصد الإيذاء، وإما باعتياد مخالطة الفسّاق وأهل الخبث واللؤم ومَن عاداتهم السبّ، وأهل الصلاح يتحاشونها ويكنّون عنها، فالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أوْلى من لفظ التغوّط والخراء، ومَن به عيوب يَستحي منها كالبرَص والقرَع، فلا يُعبَّر عنها بصريح لفظها، بل يُقال: العارض الذي يشكو.

(٨) أولئك لهم اللعنة

الصفات المقتضِية للّعْن ثلاثة: الكفر والبدعة والفسق، ولِلّعْن في كل واحدة ثلاث مراتب: اللعن بالوصف الأعم، كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدِعة والفَسَقة. أو اللّعن بأوصاف أخصّ، كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس. أو اللعن للشخص المعيَّن، وهذا فيه خطر لأن الأعيان تتقلّب في الأحوال.

(٩) الغلط العظيم

مِن الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفْرط فيه، ثم يتمسّك بفعل الرسول ﷺ! فهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسّك بأن النبيّ أذن لأم المؤمنين عائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ، إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، وفي المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار.

(١٠) صورة النفاق

من كان عند الوعد عازما على أن لا يفي، فهذا هو النفاق. أما مَن عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء، لم يكن منافقا، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، وينبغي أن يحترز من صورة النفاق كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة.

(١١) أحكام في الكذب

الكلام وسيلة إلى المقاصد، وكل مقصود محمود يمكن التوصّل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب حرام. وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا، إلا أنه ينبغي أن يُحترَز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب فيُخشى أن يتداعى إلى ما يُستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة.

(١٢) صور الغيْبة

الغيبة باللسان إنما حرِّم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه. والتعريض في الغيبة كالتصريح، والفعل كالقول، والإشارة والإيماء والهمز والكتابة والحركة وكل ما يُفهم المقصود، فهو داخل في الغيبة وهو حرام.

(١٣) دوافع الغيبة

ثمانية تطّرد في حق العامة وتبعث على الغيبة: الحقد والغضب، موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء، الطعن وإسقاط الشهادة، تبرئة النفس، رفع النفس بتنقيص الغير، الحسد، واللعب والهزل والاستهزاء.



(١٤) إنّ بعض الظنّ إثم

سوء الظنّ حرام مثل سوء القول، فكما يَحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحُكمه على غيره بالسوء. أما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه، بل الشك أيضا معفوّ عنه، ولكن المنهي عنه أن يظنّ، والظن عبارة عمّا تركن إليه النفس ويميل إليه القلب.

(١٥) ولا تجَسّسوا

من ثمرات سوء الظن: التجسّس؛ فإن القلب لا يقنع بالظنّ ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسّس وهو أيضا منهيّ عنه. ومعنى التجسّس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصّل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

(١٦) استثناءات الغيْبة

يُدفع إثم الغيبة في ستة أمور: التظلُّم، الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى منهج الصلاح، الاستفتاء، تحذير المسلم من الشرّ، أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش، أن يكون المغتاب مجاهرا بالفسق

(١٧) همّاز مشّاء بنميم

النميمة كشف ما يُكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبا في المنقول عنه أو لم يكن. وكل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يُكره، فينبغي أن يسكت عنه، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفْع معصية.



(١٨) بابُ خيْر نغفل عنه

كلّ مَن حُملت إليه نميمة، عليه ستة أمور:

أن لا يصدّق النمّام، بل ينهاه وينصح له ويقبّح عليه فعله، ويبغضه في الله تعالى. وأن لا يظنّ بأخيه الغائب السوء، وأن لا يحمله ذلك على التجسّس والبحث للتحقّق، وأن لا يحكي نميمته فيكون نمّاما ومُغتابا.

(١٩) آفة الفُتور

على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكِبْر والعُجْب، وعن آفة الفُتور. ولا ينجو إلا بأن يعرف نفسه ويتأمّل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف جميع أسراره وما يجري على خواطره لكفّ المادح عن مدحه. وإن سلم المدح من الآفات في حق المادح والممدوح، لم يكن به بأس، وربما كان مندوبا إليه.

(٢٠) التهلكة

سؤال العوام عن غوامض الدّين، من أعظم الآفات، وهو من المثيرات للفتن، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك. وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كَتب الملِك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا، فلم يشتغل بشيء منها، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة. فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة؟ وكذلك سائر صفات الله تعالى.



(٢١) غنيمة الكلام وسلامة السكوت

آفات اللسان كلها مَهالِك ومَعاطِب، وهي على طريق المتكلِّم، فإن سكت سلم من الكلّ. وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ مراقبة لازمة، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر. فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلّم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.

ذمّ الغضب والحقد والحسد

(١) مقصد الغضب؟

قوّة الغضب محلّها القلب، ومعناها غليان دم القلب يطلب الانتقام، وإنما تتوجّه هذه القوّة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفّي والانتقام بعد وقوعها. والانتقام قُوت هذه القوّة وشهوتها وفيه لذّتها، ولا تسكن إلّا به. والناس في هذه القوّة على درجات ثلاث من التفريط والإفراط والاعتدال.

(٢) السقوط المريع

السفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لـجّة البحر، أحسن حالا وأرجى سلامةً من النفس المضطربة غيظا، إذ في السفينة مَن يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويَسُوسها، أما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حياته بعدما أعماه الغضب وأصمّه.

(٣) الغضب المحمود

مَن فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم الرياضة إلّا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الحِسِّيّة. ففقْد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدّين، فينبعث حيث تجب الحميّة، وينطفئ حيث يَحسن الحِلم.



(٤) ضرورات الإنسان

ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأوّل: ما هو ضرورة في حقّ الكافّة، كالقُوت والمسكن والملبس وصحّة البدن. والثاني: ما ليس ضروريا لأحد من الخلْق، كالجاه والمال الكثير والغلمان والدوابّ. والثالث: ما يكون ضروريا في حقّ بعض الناس دون البعض، كالكِتاب مثلا في حقّ العالِم، وكذلك أدوات الصناعة في حقّ المكتسِب.

(٥) نقصان عقل

مِن أشدّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهّال، تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزّة نفس وكبر همّة! بل هو مرض قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفْس ونقصانها، وآيته أنّ المريض أسرع غضبا من الصحيح، والمرأة أسرع غضبا من الرجل، والصبيّ أسرع غضبا من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرِع غضبا من الكهل، وذو الرذائل أسرع غضبا من صاحب الفضائل. وإنما يعالَج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

(٦) إنما الحِلم بالتحلُّم

الحِلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلُّم أي تكلّف الحِلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلّا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعوّد ذلك مدّة، صار اعتيادا فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة على كمال العقل، وانكسار قوّة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلُّم وكظم الغيظ تكلُّفا.

(٧) الأحمد؟

الناس في الغضب أربعة: بعضهم كالحَلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغَضا[1] بطئ الوقود بطئ الخمود. وبعضهم بطئ الوقود سريع الخمود، وهو الأحمد، ما لم ينته إلى فتور الحميّة والغيرة. وبعضهم سريع الوقود بطئ الخمود، وهذا هو شرّهم.

(٨) شجرة الحقد المظلمة

الغضب إذا لزم كظْمه لعجزٍ عن التشفّي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا، فالحقد ثمرة الغضب، والحقد يثمر ثمانية أمور: الحسد، الشماتة، الهجران، أن تعرض عن المرء استصغارا له، وأن تتكلم فيه بما لا يحلّ من كذب وغيبة وهتك ستر وغيره، الاستهزاء والسخرية، الإيذاء، أن تمنعه حقّه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

(٩) وأن تعفوا أقرب للتقوى

للمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة: أن يستوفي حقّه من غير زيادة أو نقصان، وهو العدْل. أن يُحسن بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل. أو يظلمه بما لا يستحقّه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل. والثاني اختيار الصدّيقين، والأوّل هو منتهى درجات الصالحين.



(١) الغضا: شجر خشبه من أصلب الخشب

(١٠) ما كان الرفق في شيء إلّا زانه

لـمّا كانت الطباع إلى العنف والحدّة أميل، كانت الحاجة إلى الترغيب في جانب الرفق أكثر، وكثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محلّه حسَنا كما أن الرفق في محلّه حسَن، والكامل مَن يميّز مواقع الرفق عن مواقف العنف، فإن كان قاصر البصيرة أو أُشكل عليه، فليكن ميله إلى الرفق، فإن النّجح معه في الأكثر.

(١١) إلّا

الحسد، حدّه كراهة النعمة وحبّ زوالها عن المنعَم عليه، وهو حرام، إلّا نعمة أصابها فاجرٌ أو كافرٌ وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرّك كراهتك لها ومحبتك زوالها، فإنك لا تحبّ زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة فساد.

(١٢) أحكام الغِبطة؟

الغبطة أو المنافسة، أن لا تحبّ زوال نعمة أخيك ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهي ليست بحرام، بل إمّا واجبة إذا كانت تلك النعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة، وإما مندوبة إن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، وإما مباحة إن كانت نعمة يُتنعَّم بها على وجه مباح.

(١٣) فضل العلم على المال

الفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى، والعلم في قلب العالِم مستقر، ويحلّ في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه. والمال أجسام وأعيان ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يُتصوَّر استيعابه.

(١٤) نعوذ بالله من الحرمان

عليك إن كنت بصيرا وعلى نفسك مشفقا، أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذّة لا كدر لها؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلّا في معرفة الله عزّ وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض. ولذّة المعرفة هذه يختص بإدراكها الرجال، ولا يشتاق إليها غيرهم، لأنّ الشوق بعد الذوق، ومَن لم يذق لم يعرف، ومَن لم يعرف لم يشتق، ومَن لم يشتق لم يطلب، ومَن لم يطلب لم يدرك، ومَن لم يدرك بقي مع المحرومين.

(١٥) فنّ الممكِن

عزّة النفس وترفّعها عن أن يكون في العالَم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما لا يكون، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد، وفوات المراد ذلّ وخسّة، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذلّ سوى بأحد أمرين: بأن يكون ما تريد، أو بأن تريد ما يكون، والأوّل ليس إليك ولا مدخل للتكلّف والمجاهدة فيه. أمّا الثاني، فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، ويجب تحصّله على كلّ عاقل.



(١٦) أصول العداوة

لك في أعدائك ثلاثة أحوال، أحدها: أن تحبّ مساءتهم، وتكره حبّك لذلك وميل قلبك إليه، وتودّ لو لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفوّ عنه قطعا، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثره. والثاني: أن تحبّ ذلك وتظهر الفرح بمساءته إمّا بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعا. والثالث، وهو بين الطرفين، أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محلّ الخلاف، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوّة ذلك الحبّ وضعفه.

(١٧) عِرق شيطاني

الغضب شعلة نار اقتُبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنها المستكِنّة في طيّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكِبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحديد من النار. وقد انكشف للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزّته نار الغضب، فقد قويت فيه قرابة الشيطان.

(١٨) عدوّ نفسك صديق عدوّك!!

لو علم عدوّك خلاصك من ألم الحسد وعذابه، لكان ذلك أعظم مصيبة وبليّة عنده، فما أنت فيما تلازمه من غمّ الحسد إلّا كما يشتهيه عدوّك. فإذا تأمّلْت هذا، عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك؛ إذ تعاطيتَ ما تضرّرْت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوّك في الدنيا والآخرة، وصرتَ مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل.



ذمّ الدنيا

(١) مَنزَل قصير

الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئا، وهي ما قبل وجودك إلى الأزل. وحالة لا تكون فيها مشاهِدا للدنيا، وهي ما بعد موتك إلى الأبد. وحالة متوسطة بين الأبد والأزل، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفَي الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقلّ من منزَل قصير في سفر بعيد.

(٢) معبَر

الحياة الدنيا معبر إلى الآخِرة، والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الأخير، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة أو ثلثها أو ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة هو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد له من العبور، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها، غاية الجهل والخذلان.

(٣) بالقياس يتضح الكلام

كما أنّ الطعام كلّما كان ألذّ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة، كان رجيعه أقذر وأشدّ نتنا، فكذلك كلّ شهوة في القلب هي أشهى وألذّ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ، بل هي في الدنيا مشاهَدة، فإن مَن نُهبت داره وأُخذ أهله وماله وولده، تكون مصيبته وألمه وتفجُّعه في كلّ ما فقد بقدر لذّته به وحبّه له وحرصه عليه.



(٤) الـمُنجِيات الـمُسعِدات

ليس الموتُ عدما، إنما هو فراق لـمَحابّ الدنيا وقدوم على الله، ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني طهارته من الأدناس. وأُنسه بالله تعالى. وحبّه لله عزّ وجل. وصفاء القلب يحصل بالكفّ عن شهوات الدنيا، والأُنس لا يحصل إلّا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، والحبّ لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر.. وهذه الصفات الثلاث هي الـمُنجِيات الـمُسعِدات بعد الموت.

(٥) أبناء الدنيا؟

صحّة البدن لا تُنال إلّا بقُوت وملبس ومسكن، والقدْر الذي لا بدّ منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة، لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقّه مزرعةً للآخرة. وإن أخذ ذلك لحظّ النفس وعلى قصد التنعّم، صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها.

(٦) حظوظ الدنيا

الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرّض صاحبَه لعذاب الآخرة ويُسمّى ذلك حراما، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرّضه لطول الحساب ويُسمّى ذلك حلالا، والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب.



(٧) الغرض مربط الفرس

الفكر والذكر والكفّ عن الشهوات، ثلاثة إذا جرت سرًّا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخِر، فهي لله وليست من الدنيا. وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرّف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة، أو كان الغرض من الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يُظن بصورته أنه لله.

(٨) سفَر الآخِرة

الحاجّ البصير لا يهمّه من أمر الجمَل إلا القدْر الذي يَقوى به على المشي، فيتعهّده وقلبه إلى الكعبة والحجّ، وإنما يلتفت إلى الناقة بقدْر الضرورة. وكذلك البصير في السفر إلى الآخرة، لا يشغل بتعهّد البدن إلّا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلّا لضرورة.

(٩) لتَعَارَفوا

الإنسان خُلق بحيث لا يعيش وحده، بل يُضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين؛ أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكَر والأنثى وعشرتهما. والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد.

(١٠) الفرقة الناجية؟

الناجي فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلّيّة ولا يقمع الشهوات بالكلّيّة. أما الدنيا فيأخذ منها قدْر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل.

(١١) أعظم الفتن

فتن الدنيا كثيرة الشُّعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطمّ محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وُجدت فلا سلامة منها، فإن فُقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا، وإن وُجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلّا خسرا.

(١٢) ترياق المال

المال مثل حيّة فيها سمّ وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه، ومَن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شرّه ويستدرّ من خيره. والفوائد تنقسم إلى دنيوية ودينية، والفوائد الدينية ثلاثة: الأوّل: أن ينفقه على نفسه إمّا في عبادة أو في الاستعانة على عبادة. الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العِرض، وأجرة الاستخدام. والنوع الثالث: ما يصرفه إلى إنسان معيّن ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد ودُور المرضى وغيرها من الأوقاف المرصَدة للخيرات.

(١٣) حظوظ عاجلة

الدنيا تتناول كل حظّ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفِّي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبْر وطلب العلوّ بعضها، ولها أبعاض أخرى كثيرة يجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظّ عاجل.

(١٤) مجمّع الفضائل

السعادة لا تُنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي:

الفضائل النفسية؛ كالعلم وحسْن الخلُق. والفضائل البدنية: كالصحة والسلامة. والفضائل الخارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة، أي الخارجة أخسّها.

(١٥) آفات ثلاث

للمال آفات دينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن يجرّ إلى المعاصي. الثانية: أن يجرّ إلى التنعّم في المباحات، وربما لا يقدر المرء على التوصّل إليها بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات. والثالثة: وهي التي لا ينفكّ عنها أحد وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكلّ ما شغل العبدَ عن الله فهو خسران.

(١٦) وما يعدهم الشيطان إلا غُرورا

الشيطان يَعِد بالفقر ويأمر بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار، فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذلّ في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفا من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهّم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون.

(١٧) بين قناعة وسخاء

المال إن كان مفقودا، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص. وإن كان موجودا، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشحّ والبخل، فإنّ السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة.

(١٨) عطايا المنّان

الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، والسخاء عبارة عن بذل ما لا يُحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلّا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها.

(١٩) عزّ القناعة

مَن كَثُر طمعه وحرصه، كثرت حاجته إلى الناس، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحقّ ويلزمه المداهنة، وذلك يُهلك دينَه، ومَن لا يؤْثر عزّ النفْس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، ففي القناعة الحرية والعزّ.

(٢٠) بين التّسَخِّي والسّخاء

الإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، والجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسْط والقبْض، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيّبا به غير منازع له فيه، فإنْ بُذل في محلّ وجوب البذْل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متَسَخٍّ وليس بسخيّ.

(٢١) أبخل البخلاء

الواجب الذي يجب بذل المال فيه قسمان:

واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة..

والسخيّ هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإنْ منع واحدا منها فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة، ويمنع عياله وأهله النفقة.



(٢٢) الجواد الكريم

الجـُود هو بذل الشيء من غير عوض، هذا هو الحقيقة، ولا يُتصوَّر ذلك إلّا من الله تعالى، أما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز، إذ لا يبذل الشيء إلّا لغرض، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمَّى جودا.

(٢٣) أسباب البخل

البخل سببه حبّ المال، ولحبّ المال سببان: أن يحب عين المال، أو يحب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل.. فالإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بمال، إذ القدْر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب. وإن كان قصير الأمل، ولكن كان له أولاد، أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجْلهم.

(٢٤) أدوية لعلاج البخل

علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلُّف. وحب الشهوات يُعالَج بالقناعة باليسير والصبر، وطول الأمل يُعالَج بكثرة ذكر الموت، والتفات القلب إلى الولد يُعالَج بأن خالقه عليه رزقه، والولد إن كان تقيا صالحا فالله كافيه.



(٢٥) غرائب وعجائب

الميت تستحيل جميع أجزائه دُودا، ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقلّ عددها، ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنتين قويّتيْن عظيمتيْن، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت.

(٢٦) المال الصالح

لا يخلو أحد عن سُمّ المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف؛

الأولى: أن يعرف مقصود المال. الثانية: أن يراعي جهة دخل المال. الثالثة: أن يراعي المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقلّ. الرابعة: أن يراعي جهة المخرج، ويقتصد في الإنفاق غير مبذّر ولا مقتِّر. الخامسة: أن يُصلح نيته، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له.

(٢٧) قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

المال مثال حيّة يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري، وكما يستحيل أن يشبه الأعمى البصير في تخطّي قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة، فمحال أن يتشبه العاميّ بالعالِم الكامل في تناول المال.

ذمّ الجاه والرياء

(١) الجاه المذموم والمحمود

الجاه والمال هما ركنا الدنيا، وأصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، والمطلوب هو المنزلة في القلوب، وهو مذموم، وحبّه منشأ كل فساد، بل المحمود الخمول، إلّا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلّف طلب الشهرة منه.

(٢) صفات الكمال؟

معنى قيام الجاه في القلب، اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص، إمّا بعلم، أو عبادة، أو حسن خلُق، أو نسَب، أو ولاية، أو جمال في صورة، أو قوّة في بدن، أو شيء مما يعتقده الناس كمالا.

(٣) آثار الجاه

للجاه ثمرات:

كالمدح والإطراء؛ فإن المعتقِد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه. وكالخدمة والإعانة؛ فيكون الحضور سخرة له مثل العبد في أغراضه. وكالإيثار، وترك المنازعة، والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد.



(٤) غلَب الجاهُ المال؟

لِمُلْك الجاه ترجيح على مُلك المال من ثلاثة أوجه: الأوّل: أن التوصّل بالجاه إلى المال أيسر من التوصّل بالمال إلى الجاه، ومَن مَلك الجاه فقد ملك المال، ومَن مَلك المال لم يملك الجاه بكل حال. الثاني: أن المال يحتاج إلى الحفظة والحراس والخزائن، أمّا الجاه فهو في أمن وأمان من الغصب والسرقة. الثالث: أن مُلك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب واستقصاء، أمّا المال فلا يُقدر على استنمائه إلّا بتعب ومقاساة.

(٥) الواجد الماجد

المنفرد بالوجود هو الله تعالى، إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، فلم يكن موجودا معه لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته.

(٦) العليم

كمال العِلم لله تعالى، وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات. الثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوف كشفا تاما. الثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول.

(٧) ثابت ومتحوِّل

المعلومات قسمان: متغيرات، وأزليات.

أمّا المتغيرات، فهي علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال، وليس فيها كمال إلا في الحال، كالعلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات. وأمّا الأزليات، فهي العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض.

(٨) معرفة الله

لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى، وأما ما عدا ذلك من المعارف، فمنها ما لا فائدة له أصلا، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله؛ فمعرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله.

(٩) كمالات الملائكة

الحرية هي الخلاص من أَسْر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبُّها بالملائكة الذي لا تستفزّهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإنّ دفْع آثار الشهوة والغضب عن النفس، من الكمال الذي هو من صفات الملائكة.



(١٠) زهرة الحياة الدنيا

كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات، وانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبّوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال، وهو الكمال الذي لا يَسلم وإن سلم لا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له!

(١١) جناية كبرى

حُبّ الجاه والمال لأجل التوصّل بهما إلى مهمّات البدن غير مذموم، وحبّهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يُوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحبّ على مباشرة معصية، وما لم يتوصّل إلى اكتسابه بعبادة، فإنّ التوصُّل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدِّين وهو حرام.

(١٢) نشوة المدْح

لِـحُبّ المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب: الأوّل: شعور النفس بالكمال، والكمال محبوب، وكل كمال لذيذ. الثاني: أن المدح يدلّ على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقِد فيه ومسخَّر تحت مشيئته. الثالث: أن مدْح المادح سبب لاصطياد قلب من يسمعه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ. الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح، والحشمة لذيذة لما فيها من القهر والقدرة.

(١٣) خبايا وزوايا

الوصف الذي به مدح لا يخلو إمّا أن يكون جليًّا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه، فإن كان جليًّا محسوسا كانت اللذّة به أقلّ، كالثناء بطول القامة وبياض اللون. وإن كان ذلك الوصف مما يتطرّق إليه الشكّ، فاللذّة أعظم، كالثناء بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحُسن المطلَق، وتَعظم اللذّة متى صدرت من بصيرٍ بهذه الصفات خبيرٍ بها.

(١٤) بذور النفاق

مَن غلب على قلبه حبّ الجاه، صار مقصور الهمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفا بالتودّد إليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظّم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجرّ ذلك إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصّل إلى اقتناص القلوب.

(١٥) الكتابة على الشاطئ

كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الذمّ أم على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، وكل ما يُبنى على القلوب يضاهي ما يُبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحسّاد ومنع أذى الأعداء، كل ذلك غموم عاجلة مكدِّرة للذّة الجاه.

(١٦) الدّوام لله

لو سجد لك كل مَن على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه المتواضعين له.

(١٧) إنما هذه الحياة الدنيا متاع

لا ينبغي أن يفرح الإنسان بعَروض[1] الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها، فليس المدح هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها، كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة.

(١٨) جيل الذهب الخالص

كان اشتغال قلوب الصحابة بحالهم عند الله تعالى يبغّض إليهم مدح الخلْق؛ لأن الممدوح هو المقرَّب عند الله، والمذموم بالحقيقة هو المبعَد من الله. وهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلّا بفضل الله وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق. ومتى علم أن الأرزاق والآجال بيد الله، قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمّهم واشتغل بما يهمه من أمر دينه.

(١) عَروض جمع عَرَض، وهو المتاع والحطام، ويقول الحقّ سبحانه: ﴿تريدون عَرَض الدنيا﴾ [الأنفال ٧٦]

(١٩) قطْع الطمع

مَن ذمّك؛ إما أن يكون صدق فيما قال وقصد النصح والشفقة، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك. وإمّا أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنّت، فقد انتفعْت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به أو غافلا عنه. وقطع الطمع يهوّن عليك كراهة المذمّة، فإنّ مَن استغنيتَ عنه متى ذمّك لم يعظم أثر ذلك في قلبك.

(٢٠) لا تحزن

إن ذمّك كاذب وافترى عليك؛ فتَفكَّر في ثلاثة أمور: أحدها: أنك إن خلوت من هذا العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، والثاني: أن ذلك كفّارات لبقية مساويك وذنوبك، لأن كل من اغتابك قد أهدى إليك حسناته. والثالث: أنه قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتُشمت به الشيطان.

(٢١) الكبريت الأحمر

لو جاهد المريد نفسه طول عمره في أن يستوي عنده ذامّه ومادحه، لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرّغ معه لغيره. ومَن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل، فهو جدير بأن يُتخَّذ قدوة في هذا الزمان إن وُجد، فإنه الكبريت الأحمر يتحدّث الناس به ولا يُرى.

(٢٢) أحوال ودرجات

للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذامّ والمادح: الأُولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذمّ ويحقد على الذامّ، وهذا حال أكثر الخلق، وغاية درجات المعصية. الثانية: أن يمتعض في الباطن على الذامّ ولكن يمسك لسانه وجوارحه، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان. الثالثة: أن يستوي عنده الذامّ والمادح، وهي أوّل درجات الكمال. الرابعة: يمقت المادح ويحبّ الذام.

(٢٣) حدّ الرياء

الرياء مشتقّ من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، إلّا أنّ الجاه والمنزلة تُطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتُطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة.

(٢٤) صنوف الرياء

المُراءَى به كثير، وتجمعه خمسة أقسام هي مجامع ما يتزين به العبدُ للناس، وهي: البدن، والزيّ ، والقول، والعمل، والأتباع والأشياء الخارجة. إلّا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات، أهون من الرياء بالطاعات.

(٢٥) أغلظ الرياء

الـمُرائي إما أن لا يكون مراده ثواب الله أصلا، وهذا أغلظ الرياء ودرجته العليا. وإمّا أن يكون له قصد الثواب ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، وهذا قريب مما قبله. وإمّا أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يَسلَم. وإمّا أن يكون إطلاع الناس فقط مرجّحا ومقوّيا لنشاطه، وهذا والعلم عند الله لا يُحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه.

(٢٦) درَكاتٌ بعضها دونها بعض

الرياء قد يكون بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلّد في النار، إذ يُظهر كلمتَي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب. وقد يكون بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، كمن يصوم رمضان ويشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وهذا أيضا عظيم عند الله، ولكنه دون الأوّل بكثير. وإمّا يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى كحضور الجماعات واتباع الجنائز، وهذا أيضا عظيم ولكن دون ما قبله.

(٢٧) رياء الجلاء والخفاء

الرياء جليّ وخفيّ، فالجليّ هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه، وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرّده إلا أنه يخفّف العمل الذي يريد به وجه الله، وأخفَى من ذلك ما لا يؤثّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطِن في القلب فيُسَرّ بإطلاع الناس على طاعته، وهذا السرور رشَح من رياء خفيّ.



(٢٨) ألم الذمّ

قد يَقدر الإنسان على الصبر عن لذّة الحمد، ولا يَقدر على الصبر على ألم الذمّ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه، خيفة من أن يُذمّ بالجهل، ويفتي بغير علم ويدّعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كلّ ذلك حذرا من الذمّ.

(٢٩) مَن أدام قرع الباب يوشك أن يُفتح له

لا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشقّ في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلُّف، سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمدّ به عباده من حُسن التوفيق والتأييد والسداد، فمِن العبد المجاهدة ومِن الله الهداية، ومِن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب.

(٣٠) لا يكلّف الله نفسا إلّا وسعها

اعلم أن الله لم يكلّف العباد إلّا ما تطيق، وليس في طاعة (مقدرة) العبد منع الشيطان عن نزغاته، ولا قمع الطبع حتى لا ينزع إلى الشهوات ويميل إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهةٍ استثارها من معرفة العواقب وعلمِ الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخِر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في آداء ما كلِّف به.

(٣١) أعدى الأعداء مَن يراك ولا تراه

القرآن من أوّله إلى آخره تحذير من الشيطان، وأخْذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله، فإن من الحب له امتثال أمره، وقد أمر بالحذر من الشيطان كعدوّ كما أمر بالحذر من الكفّار، فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراه، فبِأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أوْلى.

(٣٢) اُدْعُ إلى سبيل ربك

كل عمل لا يمكن إسراره كالحجّ والجهاد والجمعة، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء. وأما ما يمكن إسراره كالصدقة؛ فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدَّق عليه ولكن يرغّب الناس في الصدقة، فالسرّ أفضل لأن الإيذاء حرام، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختُلف في الأفضل.

(٣٣) القدوة

على مَن يُظهر العمل وظيفتان: الأُولى: أن يُظهره حيث يعلم أنه يُقتدَى به أو يَظنّ ذلك ظنّا، والعالِم المعروف هو الذي يَقتدي به الناس كافّة. والثانية: أن يراقب قلبه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفيّ فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمّل بالعمل وبكوْنه يُقتدى به، وهذا حال كل مَن يُظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم.



(٣٤) أمَا بعد

حُكْم مَن يتحدّث بما فعله من عبادة بعد الفراغ، كحكْم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشدّ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفْس لذّة في إظهار الدعاوى عظيمة، إلّا أنه لو تطرّق إليه الرياء لم يؤثّر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها.

(٣٥) الترغيب

مَن قَوي قلبُه وتمّ إخلاصه وصَغُر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمّهم، فذكَر العمل عند مَن يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير.

(٣٦) سلامة الإخفاء وخطر الإظهار

لِيَحذَر العبدُ خُدَع النفس، فإنّ النفس خَدوع، والشيطان مترصّد، وحبّ الجاه على القلب غالب، وقلما تَسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات، فلا ينبغي أن نعدل بالسلامة شيئا، والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أوْلى بنا وبجميع الضعفاء.

(٣٧) ستْر العيوب

لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها، لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطّلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور، وليس كذلك، بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله مع أنه ليس كذلك.

(٣٨) الذمّ المحمود؟

الذمّ مؤلم للقلب كما الضرب مؤلم للبدن، وأكثر الطباع تتألم بالذمّ لما فيه من الشعور بالنقصان، وربّ تَألُّم بالذمّ محمود، إذا كان الذامّ من أهل البصيرة في الدّين، فإنهم شهداء الله، وذمّهم يدل على ذمّ الله تعالى وعلى نقصانٍ في الدّين، فكيف لا يغتمّ به؟

(٣٩) ربْط فاسد بين الحياء والرياء

الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قلّ مَن يتفطّن له، ويدّعي كلُّ مُراءٍ أنه مستحي، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذب، بل الحياء خُلق ينبعث من الطبع الكريم، وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه!

(٤٠) أحسن الحياءَيْن

قد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وهذا الحياء حسَن، وأحسن منه أن تستحي من الله فلا تضيّع الأمر بالمعروف، فالقويّ يؤْثر الحياء من الله على الحياء من الناس، والضعيف قد لا يقدر عليه.

(٤١) الوسواس الخنّاس

الشيطان يدعوك أوّلا إلى ترك العمل، فإذا لم تُجِب واشتغلْت، دعاك إلى الرياء، فإذا لم تُجب ودفعْت، بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص، وأنت مُراءٍ وتعبك ضائع، فأيّ فائدة لك في عملٍ بلا إخلاص؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركْته فقد حصّلْت غرضه.

(٤٢) أعظم الملاذّ؟

الإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلّدها، وذلك لما فيها من عظم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة، ويغلب النفسَ حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر، وهو أعظم ملاذ الدنيا.

(٤٣) فتنة السلطة

الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلّد الولايات، والضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعني بالقويّ الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزّه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، فهؤلاء لا يحرّكهم إلا الحقّ ولا يسكّنهم إلّا الحقّ ولو زهقت فيه أرواحهم. والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى، وفي كل فتنة ولذّة ولا فرق.

(٤٤) محاباة العوام

الواعظ يجد في وعظه وتأثُّر قلوب الناس به وتلاحُق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه، لذّة لا توازيها لذّة، فإذا غلب ذلك على قلبه، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا، ويفرّ عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقّا!

(٤٥) نُوّاب الدجّال

الواعظ هو الذي يرغّب في الآخرة ويزهّد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته، أما ما أحدثه الوعّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدّين وتخويف المسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نوّاب الدجال وخلفاء الشيطان.



(٤٦) نور على الدرب

الرياء بعضه أغمض من بعض، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يُدرَك ما هو أخفى من دبيب النمل إلّا بشدة التفقّد والمراقبة؟!

وليته يُدرَك بعد بذل المجهود، فكيف يُطمع في إدراكه من غير تفقُّدٍ للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟!

(٤٧) فساد العمل

الذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس، وإفادة العلم؛ ينبغي أن يُلزم نفسه رجاء ثواب إدخال السرور على قلب مَن قضى حاجته، ورجاء الثواب على عمل المتعلِّم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلِّم والمنعَم عليه، فإن ذلك يُحبِط الأجر.

(٤٨) برّ الوالديْن؟

مَن يخدم أبويه، لا ينبغي أن يخدمها لطلب المنزلة عندهما، إلّا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا.



ذم الكِبْر والعُجْب

(١) باطن وظاهر

الكِبْر هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبَّر عليه، وينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن خُلُق في النفس، والظاهر أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكِبْر بالخُلُق الباطن أحقّ، أما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخُلُق.

(٢) الشرّ ينادي على الشرّ وكذلك الخير

الأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، فما من خُلُق ذميم إلا وصاحب العزّ والكِبْر مُضطر إليه ليحفظ عزّه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزّه، ومِن هذا لم يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة منه، وشرّ أنواع الكِبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له.

(٣) الكمالات السبع

لا يتكبّر إلا مَن استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلّا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسَب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار، وهذه سبعة أسباب، والعلم من أعظم ما يُتكبَّر به.

(٤) أفحش الكِبْر

التكبُّر ثلاثة أقسام: الأوّل: التكبّر على الله، وذلك هو أفحش أنواع الكبر، مثل ما كان من نمروذ وكل مَن ادّعى الربوبية مثل فرعون وغيره. الثاني: التكبُّر على الرسل، من حيث تعزُّز النفس وترفّعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وهذا الكِبر قريب من التكبر على الله وإن كان دونه، فهو تكبّر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله. الثالث: التكبر على العباد، بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، وهذا دون الأوّل والثاني.

(٥) صناعات!

العلم الحقيقي ما يعرِف به العبدُ ربَّه ونفسَه، وخطر أمره في لقاء الله، والحجاب منه، وهذا يُورث الخشية والتواضع دون الكِبر والأمن. أما ما وراء ذلك؛ كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فتُسمّى صناعات أوْلى من أن تُسمّى علوما.

(٦) خسر وخاب

مَن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله، فقد أحبط بجهله جميعَ عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون.

(٧) درجات ثلاث

الكِبر ثلاث درجات: الأُولى: يكون الكِبر مستقرا في قلب المتكبّر إلا أنه يجتهد ويتواضع فِعْل مَن يرى غيره خيرا من نفسه. والثانية: يَظهر الكبرُ في أفعاله، بالترفُّع في المجالس والتقدُّم على الأقران وغيره. والثالثة: يَظهر الكبرُ على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة.

(٨) سيماهم في وجوههم

التكبر يَظهر في شمائل الرجل، كصَعَر[1] في وجهه ونظره شزرا وإطراقه رأسه وجلوسه متربّعا أو متّكئا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، ويظهر في مشيته وتبختُره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته. ومن المتكبرين مَن يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبّر في بعض ويتواضع في بعض.

(٩) خلْقا من بعد خلْق

الإنسان لم يُخلق في ابتدائه كاملا، بل خُلق جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحسّ ولا يتحرّك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته، ثم امتنّ الله عليه في مدّة حياته إلى الموت.

(١) صَعِر يَصعَر صَعَرا، أي مال بوجهه وأعرض وصدّ وعبس كِبْرا، يقول الحقّ سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لقمان ٨١

(١٠) فاسجُد واقترِب

كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء؛ فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكّس رأسه لإصلاحه. ولما كان السجود هو منتهى الذِّلة والضِّعة، أُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبْرهم ويستقرّ التواضع في قلوبهم، وبه أُمر سائر الخلق، فإنّ الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع.

(١١) وخُلق الإنسان ضعيفا

مَن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقّة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة، وحُمّى يوم تُحلّل من قوّته مالا ينجبر في مدّة، ولو توجّع عرقٌ واحدٌ في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذلّ من كل ذليل، لا ينبغي له أن يفتخر بقوّته! ثم إنْ قوي الإنسانُ فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأيّ افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟!

(١٢) فلبئس مثوى المتكبِّرين

كل متكبِّر بأمرٍ خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، فالمتكبر بالغِنى لو تأمّل لرأى في اليهود مَن يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمّل؟ فأُفّ لشرف يسبقك به اليهودي! وأُفّ لشرف يأخذه السارق في لحظة واحده فيعود صاحبه ذليلا مفلسا؟ وكذلك ما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، والتفاخر به غاية الجهل.



(١٣) ما يُعذَر به الجاهل لا يُعذَر به العالِم

حُجّة الله على أهل العلم آكد، ويُحتمَل من الجاهل ما لا يُحتمَل عُشره من العالِم.

ومَن عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش؛ إذْ لم يقض حقّ نعمة الله عليه في العلم.

(١٤) فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون

متى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل؛ غلب الأمن من مكر الله، وذلك يُوجب الكِبر، فالكِبر دليل الأمن والأمن مهلِك، والتواضع دليل الخوف والخوف مُسعِد. وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام بالإشفاق، هذا مع تقدّسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات.

(١٥) التشخيص والعلاج

مَن ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم، ففيه كِبر.

فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ، فليس فيه كبر وإنما فيه رياء.

وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعا، ففيه الكبر والرياء جميعا، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلّص من الثاني.

(١٦) طبّ القلوب

مَن لا يعرف الشرّ لا يتّقيه، ومَن لا يدرك المرض لا يداويه، وقد أهمل الناسُ طبّ القلوب واشتغلوا بطب الأجساد، مع أنّ الأجساد قد كُتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تُدرك السعادة إلا بسلامتها.



(١٧) العدْل

الميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملّق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر. كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما عُرف بالشرع والعادة.

(١٨) إلى الهاوية

المعجَب يغترّ بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله منّةً وحقًّا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويُخرجه العُجْب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيّها، وإن أُعجب برأيه وعمله عقله، منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبدّ بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال مَن هو أعلم منه.

(١٩) أرزاق

المرأة الحسناء الفقيرة، ترى الحليّ والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجَب وتقول: كيف يُحرَم مثل هذا الجمال من الزينة، ويخَصَّص لمثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها، وأنها لو خُيّرت بين الجمال مع الفقر وبين القبح مع الغنى، لآثرت الجمال، فإذن، نعمة الله عليها أكبر.

(٢٠) اتّكال الجهلاء

الانهماك في الذنوب وترْك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة، يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفِق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل، لأن سعي الطبيب وهمّته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، ولا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطبّ، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند اعتدال المزاج. وهكذا ينبغي أن نفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب.

(٢١) كتاب الله وسنّتي

جميع أهل البدع والضلال إنما أصرّوا عليها لعُجبهم بآرائهم، والعُجْب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظنّ كونه حقّا، وعلاج هذا العُجب أشدّ من علاج غيره، وعلاجه على الجملة أن يكون المرء متّهِما لرأيه أبدا ولا يغترّ به، إلا أن يشهد له قاطعٌ من كتاب أو سنّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة.

ذمّ الغرور

(١) مخطئون

الجهل هو أن يُعتقَد الشيء ويُرى على خلاف ما هو به، والغرور جهل، إلا أن كل جهل ليس بغرور، فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون أنفسهم على خير وهم مخطئون، وإذن مغرورون.

(٢) سفسطة

الذين غرّتهم الحياة الدنيا قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فهي إذن خير ولا بد من إيثارها! وقالوا: اليقين خير من الشك، ولذّات الدنيا يقين، ولذّات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك.. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس.

(٣) لكم ما كسبتُم

مَن ظنّ أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظنّ أنه يشبع بأكل أبيه ويرتوي بشرب أبيه، ويصير عالما بتعلّم أبيه، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه!! فالتقوى فرض عين، ولا يجزي فيه والدٌ عن ولدٍ شيئا، إلّا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن له في الشفاعة.



(٤) معتوه وربّ الكعبة

الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم يَنكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم يُنزل! فهو معتوه مغرور، وكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي. أترى مَن استُؤجِر على إصلاح أوانٍ وشُرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريما يفي بالوعد متى وعد ويزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسدها، ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أ فيراه العقلاء في انتظاره متمنّيا مغرورا أو راجيا؟!

(٥) حقّ تلاوته

القرآن من أوّله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكّر فيه متفكِّر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه، وترى الناس يهذّونه هزّا، يُخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤون شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالَم غرور يزيد على هذا؟!

(٦) ليس بفقيه

العلم عِلمان: معاملة: كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المحمودة والمذمومة وكيفية علاجها والفرار منها، ومكاشفة: كالعلم بالله وصفاته. والفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكّى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها، فهو مغرور.



(٧) المغرور!

أقلّ الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرّض على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرا بصّره بعيوب نفسه، ومن سرّته حسَنتُه وساءته سيئتُه فهو مرجوّ الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكِّي لنفسه الممتنّ على الله بعمله وعلمه، الظانّ أنه من خيار خلقه!

(٨) سباع الإنس

مَن اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولم يهمه إلّا تعلُّم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن متناقضات أرباب المذاهب والتفقّد لعيوب الأقران والتلقّف لأنواع التسبّبات المؤذية، وهو من سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمّهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران.

(٩) فقه الأولويّات

ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، ومن لم يحفظ الترتيب فيها كان مغرورا، فالمعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض؛ كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد.

(١٠) تُرّهات!

بعض الصوفية المغترَّة يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحبّ الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب! ويزعمون أنهم قد ترقُّوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، والشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوّتهم فيها!!

(١١) مَن أراد احتال

الإنسان إذا صحّ منه الهوى، اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إنه إذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق في جوّ السماء مع بُعده منه استنزله، وإذا أراد أن يُخرج الحوت من أعماق البحر استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه!!

(١٢) تمام المعرفة

إذا عرف المرء نفسَه، وربَّه، وعرف الدنيا والآخرة؛ ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يُوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة، وإذا غَلبت هذه الإرادة على قلبه صحّت نيته في الأمور كلّها.

(٤)

رُبْع المُنجِيات



التوبة

(١) تصحيح النسَب

الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكمًا، والتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم، والمصرّ على الطغيان مسجِّل على نفسه بنسب الشيطان، أما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد المحض للخير فخارج عن حيّز الإمكان.

(٢) عِلْم فندَمٌ فتَرْك

العلم بضرر الذنوب، والندم، والقصد المتعلِّق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي، ثلاثة معان مرتَّبة في الحصول، ويُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيرا ما يُطلق اسم التوبة على الندم وحده، ويُجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخِّر.

(٣) الأعمى والبصير

السالك إمّا أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإمّا بصير يُهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين: قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد، ويفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من الكتاب أو السنة. وسعيد أشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، فلا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، ويتنبه بأدنى إشارة إلى سلوك الطريق.



(٤) خالق كل شيء

العلم والميل أبدا يستتبع الإرادة، والإرادة أبدا تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، فلذلك يجب تقدُّم البعض وتأخُّر البعض، فلا تُخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يُخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تُخلق الحياة إلا بعد الجسم.

(٥) الثبات حال المهات

كلّ إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يُسقى بالطالعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

(٦) سموم الدين

الذنوب سموم الدين، والمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرّة للأبدان؛ فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغيّر مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة واحدة ثم يموت دفعة، وكذلك المعاصي.

(٧) مسيرة العقل

ليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله؛ فالشهوات تكمل في الصبا والشباب، بينما كمال العقل يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين.



(٨) كلّ بني آدم خطّاء

كل بشر لا يخلو من معصية بجوارحه، وإن خلا فلا يخلو عن هم القلب بالذنوب، وإن خلا فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، وإن خلا فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله.

(٩) جواهرنا الثمينة

كلّ ساعة من العمر، بل كل نفَس، جوهرة ثمينة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيّعتَها في الغفلة فقد خسرْتَ خسرانا مبينا، وإن صرفتَها إلى معصية فقد هلكْت هلاكا فاحشا!

(١٠) القلب السليم

القلب خُلق سليما في الأصل، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون.

(١١) منابع الذنوب

أمهات الذنوب ومنابعها أربعة: منها ما يقتضي النزوع إلى صفات الربوبية، مثل الكِبر وحبّ دوام البقاء. ومنها ما ينزع إلى الشيطانية، مثل الحسد والمكر. ومنها ما ينزع إلى البهيمية، مثل الزنا واللواط والسرقة وجمع الحطام لأجل الشهوات. ومنها ما ينزع إلى السبعية، مثل الغضب والقتل.. والبهيمية تغلب أوّلا، ثم السبعية، ثم الشيطانية، ثم الربوبية وهي المهلكات العظيمة.

(١٢) عفوّ غفور

الذنوب تُقسَّم إلى: ما بين العبد وبين الله تعالى، مثل ترك الصلاة والصوم. وإلى ما يتعلّق بحقوق العباد، كترك الزكاة وغصب الأموال وشتم الأعراض وقتل النفس. وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب، وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ.

(١٣) فاحشة الزنا

لا يُتصوّر أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قُصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون في الرتبة أشدّ من اللواط؛ لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه، ويعظم أثر الضرر بكثرته. وينبغي أن يكون دون القتل؛ لأنه ليس يفوّت دوام الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوّت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يُفضي إلى التقاتل.

(١٤) ضرب الله مثلا

لا يُتصوَّر شرح عالم الملكوت في عالَم الملك إلّا بضرب الأمثال، لأن عالَم الملك نوم بالإضافة إلى عالَم الملكوت، وما سيكون في اليقظة لا يتبيّن لك في النوم إلّا بالأمثلة المحوجة إلى التعبير، والرسل أيضا إنما يكلّمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة، حكمةً من الله ولُطفًا بعباده وتيسيرًا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل.

(١٥) خافضة رافعة

الناس ينقسمون في الآخرة إلى أربعة أقسام: هالكون، ومعذَّبون، وناجون، وفائزون..وتُقسَّم كل رتبة من هذه الأربع إلى درجات لا تُحصى ولا تَنحصر، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي.

(١٦) أخفّ العذاب

كلّ مَن أحكم الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحْسن جميع الفرائض -أعني الأركان الخمسة-، ولم يكن منه إلا صغائر متفرّقة لم يصرّ عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط.

(١٧) خداع الحواس

إيّـاك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس، وإنما أنت مفارقٌ للحمار بسرّ إلهَي عُرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقْن منه، وكل مَن لم يعرف إلّا المدرَك الحسّي فقد نسي الله، إذ ليس ذات الله مدرَكا في هذا العالم بالحواس الخمس.

(١٨) لا إله إلا الله

لا يُخرَج من النار إلّا موحِّد، ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالَم المُلك والشهادة ولا ينفع إلّا في عالم المُلك، وإنما ينفع الصدق في التوحيد، وكمال التوحيد أن لا يُرى الأمور كلها إلّا من الله، وهذا التوحيد متفاوِت، فمن الناس مَن له مِن التوحيد مثل الجبال، ومنهم مَن له مثقال، ومنهم مَن له مقدار خردلة وذرّة، وأكثر ما يُدخِل الموحّدين النارَ مظالمُ العباد.

(١٩) بوّابة الكبائر

الكبيرة قلّما يُتصوَّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلّما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدّمات، وقلّما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة. ولو تُصوِّرت كبيرةٌ وحدها بغتة ولم يتفق إليها عوْد، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.



(٢٠) طبقات التائبين

التائبون على أربع طبقات: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، وهذه التوبة النصوح. وتائب سلك طريق الاستقامة وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفكّ عن ذنوب تعتريه بلا عمد، وهذه نفسه لوّامة. وتائب يستمر على الاستقامة مدّة ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها بقصد ثم يتندّم، وهذه هي النفس المسوِّلة. وتائب يتوب ثم يقارف الذنب دون تأسّف وينهمك انهماك الغافل ونفسه هي الأمّارة بالسوء.

(٢١) العمل صلب الرجاء

طلب المغفرة بالطاعات، كطلب العلم بالجهد والتكرار، وكطلب المال بالتجارة وركوب البحر. وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال، كمن يطلب الكنوز في المواضع الخربة. والناس كلهم محرومون إلّا العالِمون، والعالمون كلهم محرومون إلّا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

(٢٢) توبة الكذّابين

الحسنات المكفِّرة للسيّئات، إمّا بالقلب وإمّا باللسان وإمّا بالجوارح. أمّا بالقلب؛ فبالتضرُّع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، والعزم على الطاعات وإضمار الخيرات للمسلمين. وأمّا باللسان؛ فبالاعتراف بالظلم والاستغفار. وأمّا بالجوارح؛ فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وتوبة الكذّابين هي الاستغفار بمجرّد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة.

(٢٣) معجون التوبة وثمرتها؟

إيّاك أن تستصغر ذرّات الطاعة فلا تأتيها، وذرّات المعاصي فلا تنفيها. والناس في مقارفة الذنوب قسمان: مصرّون وتائبون، ولا سبب للإصرار إلّا الغفلة والشهوة، ولا يُضادّ الغفلة إلا العلم، ولا يُضاد الشهوة إلّا الصبر على قطع الأسباب المحرّكة لها. إذن التوبة معجون يُعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، ولها ثمرتان: تكفير السيئات، ورفع الدرجات.

(٢٤) دار المرضَى

الدنيا دار المرضى، إذ ليس في باطن الأرض إلّا ميت ولا على ظهرها إلّا سقيم، والعلماء أطباء، والسلاطين قُوّام دار المرضى، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان لثلاث عِلل: فهم لا يدرون أنهم مرضى، وعاقبة مرض القلوب غير مشاهَدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، وأطباء القلوب مفقودون أو مرضى!

(٢٥) لكل داء دواء

الرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصيْن متضادّي العلّة: فالذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلّف نفسه ما لا تطيق، تُكسر سوْرة خوفه بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهّال والأغبياء.

(٢٦) فقه الوعظ

على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرُّس الصفات الخفية وترسُّم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغنٍ عن التوعّظ فيه تضييع زمان، والكلام على قدر حال السائل أوْلى من أن يكون حَسب القائل، وفي علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافّة والأدوية لأرباب العلل.

(٢٧) لماذا يذنب المؤمن؟

للوقوع في الذنب مع بقاء أصل الإيمان، أربعة أسباب: الأوّل: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس تأثّرها بالموعود ضعيف مقارنة بالحاضر. الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذّاتها ناجزة. الثالث: أنه ما من مذنِب مؤمن إلّا عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات. الرابع: أنه يذنب وينتظرٌ العفو اتكالا على فضل الله تعالى.

(٢٨) أعظم الحماقات

المسوِّف في التوبة يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء، ومثله كمن احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلّا بمشقّة شديدة، فقال أؤخّرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوّته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف!

(٢٩) حلاوة الطاعة

في التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذُّذ بمناجاة الله تعالى، واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلّا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى، لكان ذلك كافيا، فكيف بما يُنضاف إليه من نعيم الآخرة؟ وهذه اللذّة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعدما يصبر عليها مدّة طويلة وقد صار الخير ديْدنا.

(٣٠) مقامات الدّين؟

جميع مقامات الدِّين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تُورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال. والمعارف كالأشجار، والأحوال كالغصون، والأعمال كالثمار، وهذا مطّرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى.

الصبر والشّكر

(١) اصبروا وصابروا

الصبر خاصية الإنس، ولا يُتصوّر ذلك في البهائم والملائكة. أمّا في البهائم فلنقصانها، وأمّا في الملائكة فلكمالها. البهائم سُلّطت عليها الشهوات وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردّها حتى يسمّى ثبات تلك القوّة في مقابلة الشهوة صبرا، والملائكة جُرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ولم تُسلّط عليهم شهوة صادّة حتى يُحتاج إلى ما يصرفها.

(٢) من النبع اغْرِف

الذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى، يلحظ المعاني أوّلا فيطلع على حقيقتها، ثم يلاحظ الأسامي فإنها وُضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع، ومَن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزلّ.

(٣) التصبُّر؟

ما يَشقّ على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلّا بجهد جهيد وتعب شديد يُسمَّى تصبُّرا، وما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس يُسمّى صبرا، ومقام المحبة أعلى من الرضا، ومقام الرضا أعلى من مقام الصبر، وكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يُخيّل إليك أن جميعه محمود؛ فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور.. ولْيكُن الشرع محكّ الصبر.

(٤) نِعْم الرّجُل ذاك

الرجُل كلّ الرجُل مَن يصبر على العافية، فلا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودَع عنده وعسى أن يُسترجَع على القرب. والصبر على السرّاء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة، فالجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرتْه الأطعمة الطيّبة وقدر عليها.

(٥) قبل وأثناء وبعد

الصبر على الطاعة شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودة وتشتهي الربوبية، ومن العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يُكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد. ويحتاج المطيع إلى الصبر قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية، وأثناء العمل كي لا يغفل عن الله ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل، وبعد العمل صبرا عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء.

(٦) بعضه أهون من بعض

أشدّ أنواع الصبر، الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، لأن العادة إذا انضافت إلى الشهوة، تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدين على قمعها. وإذا كان ذلك الفعل مما يتيسّر فعله، كان الصبر عنه أثقل على النفس. والصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.



(٧) واجب دائم

الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فالذي كُفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا، لأن اختلاج الخواطر لا يسكن. وأكثر جولان الخاطر في فائت لا تَدارُك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدَّر، فهو كيفما كان تضييع زمان.

(٨) حكمة التدرُّج

الطبع نَفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلّا بالتدريج، ومَن راعى التدريج ترقّى به الصبر إلى حال يشقّ عليه الصبر دونه كما كان يشقّ عليه الصبر معه، فتنعكس أموره، ويصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مَشْربا هنيئا لا يصبر عنه.

(٩) الـمُنعِم الحقّ؟

كلّ مَن وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده، فهو مضطر؛ إذ سلّط الله عليه الإرادة وهيّج عليه الدواعي، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك. فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، وهو إنما يطلب نفْع نفسه بنفْعك وليس منعِما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها، إنما الذي أنعم عليك هو الذي سخّره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إليك.



(١٠) إشراق المعارف؟

الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك، فصار حجابا بينك وبينها، فلا تحتاج إلّا إلى أن تنكسر الشهوة ويُرفع الحجاب فتشرق المعارف من أنوار القلب، ولكونها حاضرة في القلب ومنسيّة بالشغل عنها، سَمّى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكُّرا.

(١١) الشكر التامّ

مَن فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافِقة لغرضه، فهو بعيد عن معنى الشكر. ومَن فرح بالمنعِم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثّه على الإنعام في المستقبل، فهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه. وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصّل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره.

(١٢) معصية الشكوى

كلّ عبد سُئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يصمت، وبينما الشكر طاعة، فإن الشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، والأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء، والشكوى إلى غيره ذلّ.

(١٣) الكُحْل والكحّالون؟

كُتُب الله المنزَّلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحّالون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض. والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلّون، والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. والمتوسّطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يَثبت، وفيهم مَن يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

(١٤) حقّ النعمة

نِعم الله تعالى آلات يترقّى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غنيّ عنه قَرُب أم بَعُد. والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه، وبين أن يستعملها في معصية فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه، وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران النعمة بالتضييع.

(١٥) زاد الراكب

الحقّ الذي لا كدورة فيه، والعدل الذي لا ظلم فيه، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركّاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديّان، ومَن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم، وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله عليه، ووبال عليه في الدنيا والآخرة.



(١٦) الهمَج الرّعاع؟

الملائكة هم الأقرب إلى الله، وإنما علوّ درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، أصلح الله بهم الأنبياء عليهم السلام. ويلي درجتهم درجة الأنبياء، فإنهم في أنفسهم خيار، هدى الله بهم سائر الخلق. ويليهم العلماء فإنهم في أنفسهم صالحون، أصلح الله بهم سائر الخلق. ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم. ثم يليهم الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط. ومَن عدا هؤلاء فهمج رعاع.

(١٧) النعمة تحقيقا؟

تنقسم الأمور كلها إلى: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا، وإلى ما هو ضارّ فيهما جميعا، وإلى ما ينفع في الحال ويضرّ في المآل، وإلى ما يضرّ في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل. فالنافع في الحال والمآل، هو النعمة تحقيقا، كالعلم وحسن الخلق. والضارّ فيهما، هو البلاء تحقيقا وهو ضدّهما. والنافع في الحال المُضرّ في المآل، بلاء محض عند ذوي الأبصار وتظنه الجهّال نعمة. والضارّ في الحال النافع في المآل، نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهّال.

(١٨) صنوف اللذائذ

النعمة يُعبَّر بها عن كل لذيذ، واللذّات ثلاثة: عقلية، كلذّة العلم والحكمة، وهذه أقلها وجودا وأشرفها. وبدنية مشترَكة مع بعض الحيوانات كلذّة الرياسة والغلَبة والاستيلاء، وموجودة في الأسد والنمر وبعض الحيوانات. وبدنية مشترَكة مع جميع الحيوانات، كلذّة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجودا وأخسها، ويشترك فيها حتى الديدان والحشرات.



(١٩) نعمة الأهل والولد

متى كثُر أولاد الرجل وأقاربه، كانوا له مثل الأعين والأيدي، فيتيسّر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله، وكل ما يُفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، وهو إذن نعمة.

(٢٠) فائدة العزّ والجاه

العزّ والجاه، به يدفع الإنسان عن نفسه الذلّ والضّيم، ولا يستغني عنه مسلم لا ينفكّ عن عدوّ يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعزّ والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان؛ فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع.

(٢١) السلامة السلامة

النِّعم الدنيوية امتزج دواؤها بدائها ونفعها بضرّها، فمَن وثق ببصيرته وكمال معرفته، فله أن يقترب منها متّقيا داءَها ومستخرجا دواءَها، ومَن لا يثق بها، فالبعْد البعْد والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار، ولَا تعدل بالسلامة شيئا.

(٢٢) التوفيق؟

التوفيق هو التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل السعادة والشقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيصه بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله وقدره.



(٢٣) السَّداد والتأييد؟

للهداية ثلاث منازل: الأُولى: معرفة طريق الخير والشرّ، وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده، بعضه بالعقل، وبعضه على لسان الرسل. والثانية: هي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالا بعد حال، وهي ثمرة المجاهَدة. والثالثة: هو النور الذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهَدة. والهداية لا تكفي، بل لا بد من هداية محرِّكة وهي الرُّشْد. والرشد لا يكفي، بل لا بد من إعانة ونصرة حتى يتم المراد، وهو السَّداد. والتأييد جامع للكلّ.

(٢٤) معجزة اليدين

أنعم اللهُ تعالى عليك بخلق اليدين، ثم جعل رأس اليد عريضا بخلْق الكفّ، ثم قسّم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع، ووضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممْتَها كانت لك مغرفة، وإن جمعتَها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتَها ثم قبضتَها كانت لك آلة للقبض، ثم خلق لها أظفارا حتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة.

(٢٥) هذا خلْق الله!

انظر إلى عجيب صنع الله تعالى، فإن كل رحى صنعه الخلق يَثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلّا هذا الرحى الذي صنعه الله، حيث يتقدّم الفكّ الأسفل ويتأخّر حتى يدور على الفكّ العلويّ دوران الرّحى، ولولا ذلك لما تيسّر إلّا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين، وبذلك لا يتم الطحن.



(٢٦) وقد خلقكم أطوارا

خلق الله تعالى الخلْق أطوارا، وكما يدرك الصبيّ المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأنّ ذلك طوْر لم يبلغه بعد، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طوْر لم يبلغه بعد، والروح من الأمور الربانية التي لا تحتمل العقول وصفها بل تتحيّر فيها عقول أكثر الخلْق.

(٢٧) جسد وأعضاء!

لله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبّون لله تعالى، وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلّا لفائدة، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلّا لفائدة. والعالم كلّه كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك.

(٢٨) الملائكة؟

تنحصر الملائكة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية، والسماوية، وحملة العرش. والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش. والمنعِم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد، المهيمن القدّوس المنفرد بالملك والملكوت. وخلْقة الملائكة تخالف خلْقة الإنس، وما من واحد منهم إلّا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتّة، فلا يكون لكل واحد منهم إلّا فعل واحد.

(٢٩) نعمة البلاء

العافية خير من البلاء، والبلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إمّا في الدنيا أو في الدّين، والآخَر بالإضافة إلى ما يُرجَى من الثواب. فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته، فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر.

(٣٠) لا يُعوّل عليه

مَن شرب كأس المحبّة سَكِر، ومن سكر توسّع في الكلام، ولو زايله سكْره لعلم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، وهو من كلام العشّاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يُستلذّ سماعه ولا يُعوَّل عليه.

الخوف والرجاء

(١) جناحان

الرجاء والخوف جناحان ومطيّتان؛ فلا يقود إلى قُرب الرحمن وروح الجنان مع كـوْنه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاقّ الجوارح، إلّا أزمّة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كـوْنه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذّات، إلّا سياط التخويف وسطوات التعنيف.

(٢) صفات القلب

يُسمَّى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام، وإنما يُسمَّى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال، وكما أن الصفْرة تنقسم إلى ثابتة كصفْرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفْرة الوجل، وإلى ما بينهما كصفْرة المرض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام.

(٣) الذوْق؟

كل ما يلاقيك مِن مكروه ومحبوب ينقسم إلى موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظَر في الاستقبال؛ فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سُمّي ذِكرا وتذكُّرا، وإن كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سُمِّي وجْدا وذوقا وإدراكا، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وكان مكروها حصل منه ألم في القلب سُمّي خوفا وإشفاقا، أما إن كان محبوبا حصل من انتظاره لذّة في القلب وارتياح سُمِّي رجاء.



(٤) التمنِّي والغرور والرجاء

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقَّع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حدوث أكثر أسبابه، فاسم الرجاء عليه صادق. وإن كان انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها، فاسم الغرور والحمق عليه أصدق. وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتقاء، فاسم التمنِّي أصدق.

(٥) دواء اليأس

دواء الرجاء يحتاج إليه أحد رجليْن:

إمّا رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضرّ بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط.

(٦) زمن التخويف

هذا الزمان زمان لا ينبغي أن يُستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد لا تردّهم إلى جادة الحق. ولمّا كان الرجاء أخفّ على القلوب وألذّ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلّا استمالة القوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا، مالوا إلى الرجاء، حتى ازداد الفساد فسادا والمنهمِكون في طغيانهم تماديا.

(٧) حُسْن الظنّ

العبادة على الرجاء أفضل، لأن المحبّة أغلب على الراجي منها على الخائف، فكم من فرق في الملوك بين مَن يخدم اتقاءً لعقابه ومَن يخدم ارتجاءً لإنعامه وإكرامه، ولذلك أمر الله تعالى بحسْن الظنّ.

(٨) حقيقة الخوف ومعناه؟

قوّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، بحسب قوّة الخوف الذي هو تألُّم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال. والخوف ما لم يكفّ الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحقّ أن يسمَّى خوفا.

(٩) العفّة والتقوى

الخوف يؤثّر في الجوارح بالكفّ ويتجدّد له بسبب الكفّ اسم العفّة، وهو كفٌّ عن مقتضى الشهوة. وأعلى منه الورع؛ لأنه كفٌّ عن كل محظور. وأعلى منه التقوى؛ لأنه اسم للكفّ عن المحظور والشبهة جميعا. ووراءه اسم الصِّدِّيق والمقرَّب. وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخصّ من الأعـمّ، فإذا ذكـرْتَ الأخصّ فقد ذكـرْتَ الكلّ.

(١٠) رقّة النساء

الخوف له قصور وإفراط واعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط، والقاصر منه هو الذي يجرى مجرى رقّة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيُورث البكاء وتفيض الدموع، وإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ، رجع القلب إلى الغفلة، وهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع، وهكذا خوف الناس كلّهم إلّا العارفين والعلماء.

(١١) سؤال فاسد

قول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يُقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نُظر إلى الأغلب: فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان. فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب اليأس من رحمة الله فالرجاء أفضل.

(١٢) ما قبل الموت وبعده

غلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أمّا عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظنّ، لأن الخوف جارٍ مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموتً لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإنّ ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، أمّا روح الرجاء فإنه يقوّي قلبه ويحبّب إليه ربه الذي إليه رجاؤه.

(١٣) فارق بين خَوْفيْن

الخوف من الله تعالى على مقاميْن: أحدهما: الخوف من عذابه، والثاني: الخوف منه. فأما الخوف منه، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر. وأمّا الأوّل، فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءيْن على الطاعة والمعصية.

(١٤) الله لطيف بعباده

خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشتعالا ولا يمكّنها من الانطفاء، وكيف يُؤمَن تغيُّر الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، والقلب أشد تقلّبا من القِدر في غليانها، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين، إذ روّح قلوبهم بروح الرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

(١٥) النفاق!

فسّر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منها إلا صدِّيق، إذ قال الحسن: إنّ من النفاق اختلاف السرّ والعلانية، واختلاف اللسان والقلب، واختلاف المدخل والمخرج. ومَن الذي يخلو عنِ هذه المعاني، بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونُسي كونها منكر بالكلّية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة فكيف الظنّ بزماننا!

(١٦) عذاب القبر؟

كلّ مَن أنكر عذاب القبر فهو مبتدِع محجوب عن نور الله ونور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحّت به الأخبار، وهو أن القبر إمّا حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة.



(١٧) صيانة العقيدة

البدعة:

أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحقّ، فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إمّا برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوِّل وبه يغترّ، وإمّا أخْذًا بالتقليد ممّن هذا حاله.

(١٨) بغْتة الرحيل

إيّاك أن تُسوِّف وتقول: سأستعدّ إذا جاءت الخاتمة، فإنّ كل نفَس من أنفاسك خاتمتك؛ إذ يمكن أن تُختطف فيه روحك. فراقِب قلبك في كل تطريفة، وإيّاك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تُختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك. وأما إذا نمت، فإيّاك أن تنام إلّا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلّا بعد غلبة ذكر الله على قلبك.

(١٩) استجيبوا لربّكم

مَن وقعَت سفينته في لجّة البحر وهجمَت عليه الريح العاصفة واضطربَت الأمواج، كانت النجاة في حقّه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدّ اضطرابا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر. والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلّا على ما غلب عليه في يقظته، ولا يستيقظ إلّا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلّا على ما عاش عليه، ولا يُحشر إلّا على ما مات عليه.

(٢٠) مفارَقة!

من العجائب؛ أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعْنا وغرسْنا واتّجرْنا وركـبْنا البحار والبراري وخاطرْنا، وإن أردْنا طلب رتبة العلم فقهْنا وتعبْنا في حفظه وتكراره، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعَت أعينُنا نحو الـمُلك الدائم المقيم قنعْنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا!

(٢١) أودية الأماني

جميع ضرورات أمورك، إن اقتصرْت عليها، تفرّغْت لله وقدرْت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزْت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني، تشعّبَت همومك ولم يبال الله في أيّ واد أهلكك.

الفقر والزُّهد

(١) الفقراء إلى الله

الفقر: فقْد ما هو محتاج إليه، أمّا فقْد ما لا حاجة إليه فلا يُسمَّى فقرا، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا، وإذا فهمْت هذا لم تشكّ في أن كلّ موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام الوجود مستفاد من فضل الله تعالى ووجوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنيّ المطلَق، ولا يتصوّر مثل هذا إلا لله.

(٢) الحجاب؟

الشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله؛ إذ لا بُعد بينك وبين الله حتى يكون البُعد حجابا، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلّا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره.

(٣) إنّي قريب

الدنيا ليست محذورة لعينها، ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى. ولا الفقر مطلوبا لعينه، لكن لأن فيه فقد العائق عن الله وعدم الشاغل عنه. وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد حبّ الله والأنس به.

(٤) معشوقة الغافلين

الشاغل على التحقيق، حبّ الدنيا، إذ لا يجتمع معه حبّ الله تعالى في القلب، والمحبّ للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتّع بها.

(٥) الإقبال والتَّجافي

لا يُتصوَّر قلبٌ فارغ، وليس في الوجود إلّا الله تعالى وغيره، فـمَن أقبل على غيره فقد تجافى عنه، ومَن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخَر، وقرْبه من أحدهما بقدر بعْده عن الآخَر، ومثَلهما مثَل المشرق والمغرب، عين القرْب من أحدهما هو عين البعْد عن الآخَر.

(٦) اختبار

فضل الفقير والغنيّ بحسب تعلُّق قلبيهما بالمال، إن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلّا أنّ هذا مزلّة قدم وموضع غرور، فإن الغنيّ ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حُبّه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سُرق عنه، فإن وجد لقلبه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا، وهذا حال كلّ الأغنياء إلّا الأنبياء والأولياء.

(٧) الباقي والفاني

فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحبّ مَن لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحبّ ما يفارقك وهو الدنيا، لأنك إذا أحببْت الدنيا كرهْت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه. وكلّ مَن فارق محبوبا يكون أذاه في فراقه بقدر حبّه وقدر أُنسه، وأُنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أُنس الفاقد لها وإن كان حريصا عليها.

(٨) الغِنى؟

في الادّخار ثلاث درجات؛ إحداها: أن لا يدّخر إلّا ليومه وليلته، وهي درجة الصِّدِّيقين. والثانية: أن يدّخر لأربعين يوما، وهي درجة المتقين. والثالثة: أن يدّخر لسَنته، وهذا أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين.. فغِنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قُوت سَنته، وغِنى الخصوص في أربعين وما، وغِنى خصوص الخصوص في يوم وليلة.

(٩) آداب راقية

للفقير آداب في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها؛ فأدب باطنه: أن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أن لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله، وإن كان كارها للفقر. وأدب ظاهره: أن يُظهر التعفّف ولا يُظهر الشكوى. وأدب مخالطته: أن لا يتواضع لغنيّ لأجل غناه، ولا يسكت عن الحقّ طمعا في عطاء. وأدب أفعاله: أن لا يَفتُر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليلِ ما يَفضُل عنه.

(١٠) محذورات مدّ اليد بالسؤال

السؤال يُباح بضرورة أو حاجة قريبة من الضرورة كما تحل الميتة، وفيه محذورات ثلاث: الأوّل: إظهار الشكوى من الله تعالى.

والثاني: أنّ فيه إذلال السائل نفسَه لغير الله تعالى.

والثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء.

(١١) حلالا طيّبا

أين مَن يطيب قلبُه بالعطاء إذا سُئل؟ وأين مَن يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة؟ فإذا فتّشْت أحوال مَن يأكل من أيدي الناس علمْت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت، وأن الطيّب هو الكسب الذي اكتسبْته بحلالك أو مورّثك، وبعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس.

(١٢) الباقيات الصالحات

التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي حظّ النفس، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، وهكذا مثال الدنيا والآخرة.



(١٣) الزاهد الحقّ؟

الزاهد مَن أتته الدنيا راغمة صفوا وعفوا، وهو قادر على التنعّم بها، فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله. أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة؛ فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين، وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة.

(١٤) المتزهِّد؟

المتزهِّد، يزهد في الدنيا وهو لها مُشْته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفّها، وهو مبدأ الزهد في حقّ مَن يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، ولكنه على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

(١٥) الـخَزَفة والجوهرة

الكمال في الزهد، أن يزهد طوْعا، ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئا. فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركا شيئا، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة، أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة.

(١٦) الكلب واللقمة

مثَل مَن ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة، مثَل مَن منعه من باب الملِك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز، فشغله بنفسه، ودخل الباب، ونال القرب عند الملِك. والشيطان كلب على باب الله تعالى، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة الخبز.

(١٧) فأيّ نسْبة؟

لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كلّ كدَر، لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدّة العمر قصيرة ولذّات الدنيا مكدَّرة غير صافية، فأيّ نسبة لها إلى نعيم الأبد؟!

(١٨) وجاهِدوا

الزاهدون المحِبّون لله تعالى، قاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنييْن، وكانوا إذا دُعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليها مبادرة الظمآن إلى الماء البارد، حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان مَن مات منهم على فراشه يتحسّر على فوت الشهادة.

(١٩) احْترِز

حق الزاهد أن لا يسعى إلى طلب المحل في القلوب أصلا، فإن اشتغاله بالدّين والعبادة يمهّد له من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار، فكيف بين المسلمين؟ فإذن طلب المحلّ في القلوب لا رخصة فيه أصلا، واليسير منه داعٍ إلى الكثير، وضراوته أشدّ من ضراوة الخمر، فليُحترَز من قليله وكثيره.

(٢٠) سلاسل الشهوة

مَثَل جامع الدنيا ومتّبع الشهوات، كدود القَزّ، لا يزال ينسج على نفسه حيًّا، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا، فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه. فكذلك كلّ مَن اتبع شهوات الدنيا، فإنما يُحكم على قلبه بسلاسل تقيّده بما يشتهيه، حتى تتظاهر عليه السلاسل.

(٢١) قل هاتوا برهانكم

ينبغي أن يعوِّل الزاهدُ في باطنه على ثلاث علامات:

الأُولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود. الثانية: أن يستوي عنده ذامُّه ومادحه.

والعلامة الثالثة: أن يكون أُنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

التوحيد والتوكُّل

(١) مراتب أربع

للتوحيد أربع مراتب: الأولى: أن يقول الإنسان بلسانه «لا إله إلا الله» وقلبه غافل عنه أو منكر له، كتوحيد المنافقين. الثانية: أين يصدّق بمعنى اللفظ قلبُه، وهو اعتقاد عوام المسلمين. الثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقرَّبين. الرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحدا، وهي مشاهدة الصِّدِّيقين، وتسمّيه الصوفية الفناء في التوحيد.

(٢) غاية الجهل

التفات العبد إلى الأسباب دون المسبِّب، يضاهي التفات مَن أُخِذ لتُقطَع رقبته، فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحِبر والكاغد والقلم الذي به كُتب التوقيع، يقول: لولا القلم لما تخلّصْت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم، وهو غاية الجهل.

(٣) حقّ التوكّل

مَن كان متوكّلا على الله حقّا ونظره إليه واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبيّ بأمّه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها، فإذا رآها تعلّق في كل حال بذيلها ولم يُخْلها، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه: يا أمّاه، وأوّل خاطر في قلبه أمّه.



(٤) لا فاعل بحقّ إلّا الله

للتجوّز وجه كما أن للحقيقة وجها، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظنّ أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسمّاه فاعلا بحركته وظنّ أنه تحقيقا، وتوهّم أن نسبته إلى الله على سبيل المجاز، مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته للجلّاد. فلمّا انكشف الحقّ لأهله عرفوا أنّ الأمر بالعكس وقالوا: إن الفاعل قد وضعْتَه أيها اللغويّ للمخترع، فلا فاعل إلا الله، والاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز.

(٥) الاطمئنان الكاذب

كم من مطمئنّ لا يقين له، كسائر أرباب الملل والمذاهب، فاليهودي مطمئن إلى تهوّده، وكذا النصراني، ولا يقين لهم أصلا، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين، إلا أنهم معرضون عنه!

(٦) فطرة الله التي فطر الناس عليها

البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحوْل والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحوْل والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض.

(٧) لا حول ولا قوّة إلا بالله

الحوْل والقوّة، قد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدّعي النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشَّعر بحدّة نظره، فهي مهلكة مخطرة ومزلّة عظيمة هلك فيها الغافلون إذا أثبتوا لأنفسهم أمرا، وهو شركٌ في التوحيد وإثباتُ خالق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبتُه وعظمَت درجتُه.

(٨) ظنّ الجُهّال

قد يُظنّ أنّ معنى التوكُّل ترك الكسْب البدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم، وهذا ظنّ الجهّال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكّلين، فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدّين بمحظورات الدّين!

(٩) مقصود حركات العباد

إنما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد، وسعيه بعلمه إلى مقاصده. وسعي العبد باختياره إمّا يكون لأجل جلبِ نافع هو مفقود عنده الكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدَفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسِّباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوي من المرض..

ومقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

(١٠) يدبّر الأمر

لـمّا انفصل الجنين، سلّط الله تعالى الحُبّ والشفقة على الأم لتتكفّل به شاءت أم أبت بما أشعل في قلبها من نار الحبّ. ثمّ لـمّا لم يكن له سنّ يمضغ به الطعام، جعل رزقه من لبن لا يحتاج المضغ. ولأنه لرخاوة مزاجه، لا يحتمل الغذاء الكثيف، فأدرّ له اللبن اللطيف في ثدي الأم، فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف، أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ. فإذا كبر واستقلّ، يسّر له أسباب التعلّم وسلوك سبيل الآخرة.

(١١) لا حظْر في عين الدنيا

مَن يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر، فالادّخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرّغ قلبه إلا به، فذلك أوْلى، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله، ورُبّ شخص يشغله وجود المال، وربّ شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يُشغل عن الله، وإلّا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها.

(١٢) حكمة المرض؟

الصحة عبارة عن قوّة الصفات، وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلّها أن تدعو إلى التنعّم في المباحات، وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يُخله عن التنبّه بالأمراض والمصائب، فإذا كان في المرض حُبس عن الطغيان وركوب المعاصي، فأيّ خير يزيد عليه؟



(١٣) أعمال القلوب

ذرّة من أعمال القلب: مثل الصبر والرضا والتوكّل، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غائبا مدهشا، ولذا قال سهل التستري رحمه الله، عِلل الأجسام رحمة وعِلل القلوب عقوبة.

(١٤) ثلاثة أسباب

الأسباب المزيلة للمرض تنقسم إلى: مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع، وهذا ليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت. وموهوم كالكيّ والرقية والطيرة، وشرط التوكل تركه. ومظنون: كالفصد والحجامة وسائر أبواب الطب، وهذا ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم، وترْكه ليس محظورا بخلاف المقطوع.

(١٥) العلاج بالكيّ؟

الكيّ عادة بعض الأتراك والعرب، وهذا من أسباب العلاج الموهومة، فما من وجع يعالَج بالكيّ إلّا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق، والإحراق مخرّب للبنْية ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الكيّ.



المحبّة والشوق والأُنس والرضا

(١) الذروة العليا؟

المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها.

(٢) الحسّ السادس

سَمّى النبيُّ ﷺ الصلاة قرّة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حسّ سادس مظنّته القلب لا يدركه إلّا مَن كان له قلب، والقلب أشدّ إدراكا من العين، وجمال المعاني المدرَكة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليها أقوى.

(٣) الحّبّ والبُغض

الحبّ عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلِذّ، فإنْ تأكد ذلك الميل وقوي سُمّي عشقا. والبغض عبارة عن نفْرة الطبع عن المؤلِم المتعِب، فإذا قوي سُمّي مقتا. وكل محبّ بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف.



(٤) أجنحة الإنسان

المحبوب الأوّل للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضاءه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها، والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله، وكذا سائر الأسباب، فهي كالجناح المكمّل للإنسان.

(٥) لذاته ولغيره

فرق بين حبّ الصحة وحبّ الطبيب، إذ الصحة محبوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب الصحة. وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب.

(٦) لذّة الجمال

الطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسَنة النقش المتناسبة الشكل، حتى إنّ الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظّ وراء النظر. فهذه الأسباب مُلِذّة وكل لذيذ محبوب، وكل حُسْن وجمال لا يخلو إدراكه عن لذّة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع، ومتى ثبت أنّ الله جميل كان لا محالة محبوبا عند مَن انكشف له جماله وجلاله.



(٧) خطأ فاحش

المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات، ربما يظن أنه لا معنى للحسْن والجمال إلا تَناسُب الخلقة والشكل وحُسْن اللون، فالحسْن الأغلب على الخلْق حسْن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص، فيُظنّ أن ما ليس مبصَرا ولا متخيَّلا ولا متشكَّلا ولا ملوَّنا لا يُتصوَّر حسْنه، وإذا لم يُتصوّر حسْنه لم يكن في إدراكه لذّة ولم يكن محبوبا، وهذا خطأ فاحش.

(٨) أنوار البصائر

الحُسْن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خُلق حسَن وهذا علم حسَن وهذه سيرة حسنة، وإنما الأخلاق الحسنة يُراد بها العلم والعقل والعفّة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يُدرَك بالحواس الخمس بل يُدرَك بنور البصيرة الباطنة.

(٩) قصور الحواسّ

مَن يحب الشافعي مثلا، لم يشاهد قطّ صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحبّ، هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت مع التراب ترابا، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدِّين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدّين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم، وهذه أمور جميلة لا يُدرَك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها.

(١٠) اللهمّ لا تحرمنا

مَن حُرِم البصيرة الباطنة، لا يدركها ولا يلتذّ بها ولا يحبها ولا يميل إليها. ومَن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، وشتّان بين مَن يحبّ نقشا مصوَّرا على الحائط لجمال صورته، وبين من يحبّ نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

(١١) خمسة أقسام

ترجع أقسام الحبّ إلى خمسة أسباب: حبّ الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه. وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه. وحبه من كان محسنا إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه. وحبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة. وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن. ولو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة، وقوّة الحبّ بحسب قوّة الخِلال.

(١٢) كُن مع الله

مَن أحب غير الله، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى. فحبّ رسول الله محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومُحِب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحقّ للمحبة سواه.

(١٣) كلٌّ من عند الله

كل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى، هو كالظلّ بالإضافة إلى الشجرة، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإن الكلّ من آثار قدرته، ووجود الكلّ تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر.

(١٤) مُقتَضَى الغرائز

الإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوّة وغريزة لذّة، ولذّتها في نيلها المقتضي طبعها الذي خُلقت له. فغريزة الغضب لذّتها في الغلبة والانتقام الذي هو مَقتضَى طبعها، وغريزة شهوة الطعام لذّتها في نيل الغذاء الذي هو مقتضَى طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم. فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها

(١٥) قوّة الجذْب

المناسبة والمشاكلة سبب للحُبّ، لأن شبه الشيء منجذِب إليه والشكل إلى الشكل أميل، ولذلك ترى الصبيّ يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، وأُنس العالِم بالعالِم أكثر من المحترِف، وأُنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح.

(١٦) طوبى لأرباب القلوب

الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدرَكة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدرَكة بعين القلب ونور البصيرة، والأوّل يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه مَن لا يعلم إلّا ظاهرا من الحياة الدنيا.

(١٧) لا مشاحّة في الاصطلاح

في القلب غريزة تسمّى النور الإلهي، وقد تسمَّى العقل، وقد تسمّى البصيرة الباطنة، وقد تُسمَّى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسامي، فإن الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظن أنّ الاختلاف واقع في المعاني لأنه يطلب المعاني من الألفاظ، وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيَّلة ولا محسوسة.

(١٨) مملكة الله!

لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى علّيين إلى أسفل سافلين، خالية من المزاحمات والمكدّرات، متّسعة للمتواردين عليها ولا تضيق عنهم بكبَرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها.



(١٩) خلود الروح

الموت لا يهدم محلّ معرفة الله تعالى، ومحلّها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخلّيها من حبسها، أمّا أن يعدمها فلا.

(٢٠) لذّة معرفة الله

الصبيّ في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذّ اللعب واللهو، ثم يظهر بعده لذّة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذّة اللعب، ثم يظهر بعده لذّة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها، ثم تظهر لذّة الرياسة والعلوّ والتكاثر وهي آخر لذّات الدنيا وأعلاها وأقواها، ثم تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذّة معرفة الله تعالى فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكلّ متأخِّر أقوى.

(٢١) كيف؟

مَن لا نواة في أرضه، كيف يحصل له نخل؟ ومَن لم يزرع الحَبّ، كيف يحصد الزرع؟ فكذلك مَن لم يعرف الله تعالى في الدنيا، كيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلّي أيضا على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلّي بالإضافة إلى اختلاف المعارف، كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلّتها وحُسنها وقوّتها وضعفها.

(٢٢) الأقوياء والضعفاء

الأقوياء في محبة الله، يكون أوّل معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره. أمّا الضعفاء، فيكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثم يترقّون منها إلى الفاعل، وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين والأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبّر والتفكّر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

(٢٣) الآدميّ والفَراش

صورة الآدميّ قي الإكباب على الشهوات، كصورة الفراش في التهافت على النار؛ إذ تلوح للآدميّ أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها، ولا يدري أن تحتها السمّ الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها، إلى أن ينغمس فيها ويتقيّد بها ويهلك هلاكا مؤبّدا. وليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش، فإنها باغترارها بظاهر الضوء، إن احترقَت تخلّصَت في الحال، والآدميّ يبقى في النار أبد الآباد أو مدّة طويلة.

(٢٤) أنوار الحضرة الإلهية

الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدّة ظهوره، فإنّ بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوّة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا، إلّا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره. فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول، وسبحان مَن احتجب بإشراق نوره واختفى عن الأبصار بظهوره.

(٢٥) دلائل المحبّة

محبة الله للعبد، تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. أمّا محبة العبد لله، فهو ميله إلى درك الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، فلا جَرَم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئا يلتذّ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

(٢٦) ما أسهل الدعوى!

محبة الله يدّعيها كلّ أحد، وما أسهل الدعوى وما أعزّ المعنى، فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادّعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة، فالمحبة شجرة طيبة وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل عليها دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار.

(٢٧) كراهة الموت

كراهة العبد للموت، قد تكون في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعدّ للقاء الله، وهو كالمحبّ الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحبّ أن يتأخّر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعدّ له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، والكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب.



(٢٨) كَمال الحُبّ لله

المعصية لا تُخرج العبدَ عن محبة الله وإنما تُخرجه عن كمال الحبّ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحبّ الصحة ويأكل ما يضرّه مع العلم بأنه يضرّه، وذلك لا يدلّ على عدم حبه لنفسه، ولكن المعرفة قد تَضعف والشهوة قد تَغلب فيعجز عن القيام بحقّ المحبة.

(٢٩) لا تَناقُض

قد يُظنّ أن الخوف من الله يضادّ الحبّ لله، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يُوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يُوجب الحبّ، والمحبّ لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو عن محبة. ولخصوص المحبّين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض، فأوّلها خوف الإعراض، وأشدّ منها خوف الحجاب، وأشد منها خوف الإبعاد.

(٣٠) الحاضر الغائب

علامة أُنس العبد بالله، ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرّم بهم، فإن خالط فهو كمنفرِد في جماعة ومجتمِع في خلوة، وغريب في حضَر وحاضر في سفَر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالِطٌ بالبدن منفرِدٌ بالقلب، مستغرقٌ بعذوبة الذكر.

(٣١) ثُلث القرآن؟

لا يعدو القرآن أقساما ثلاثة: وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه. أو معرفة صفاته وأسمائه. أو معرفة أفعاله وسنّته مع عباده. ولـمّا اشتملَت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وهو التقديس، وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن، فقال: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن».

(٣٢) ضرْب الحبيب كالزَّبيب؟

الحُبّ يُورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهيْن: أحدهما: أن يُبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحسّ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب فإنه في حَالة غضبه أو خوفه تصيبه جراح ولا يحس بألم، لشغل قلبه. أما الوجه الثاني: فيحس بالألم ويدركه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له بعقله وإن كان كارها بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة.

(٣٣) زعموا

غَلِط بعضُ البطّالين المغترّين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزّ وجلّ، فيجب الرضا به! وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

(٣٤) عملة ذات وجهين!

المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعْله واختياره وإرادته، فيرضَى العبدُ من هذا الوجه تسليما للمُلْك إلى مالك الملك ورضًا بما يفعله فيه. ووجْه إلى العبد من حيث إنه كسْبه ووصْفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلّط عليه أسبابَ البُعد والمقت، فهو بهذا الوجه منكَر ومذموم.

(٣٥) فلسفة الدعاء

الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبَّد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاءُ منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف.

(٣٦) حكم إظهار البلاء؟

التمسّك بالأسباب جريا على سنّة الله لا يناقض التوكل، وأيضا لا يناقض الرضا، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به. بينما إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى، مناقض للرضا. وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض.



(٣٧) فلا تخرجوا

العلّة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون، أنه لو فُتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحّاء، وبقي فيه المرضى مهمَلين لا متعهِّد لهم، فيهلكون هزالا وضَرّا، ولذلك شبّهه رسول الله ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف.

(٣٨) التخلُّق بأدب الشرع

الشرّ والخير كلاهما داخلان في مشيئة الله وإرادته، ولكن الشرّ مُراد مكروه والخير مُراد مرضيّ به، ومَن قال: ليس الشرّ من الله، فهو جاهل، وكذا من قال إنهما جميعا منه، من غير افتراق في الرضا والكراهة. والأَوْلى السكوت والتأديب بأدب الشرع فيما تعبَّد اللهُ الخلْق من الجمع بين الرضا بقضاء الله ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى.

(٣٩) الكشف والإلهام؟

بعد تصفية القلب عن كـوْرة الالتفات إلى الخلق، يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق. وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك اليقين، هو غاية الجهل والضلال. فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، ولو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي، لضاق مجال الإيمان عليه.

النيّة والإخلاص والصدق

(١) النيّة أوّلا

العمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء. فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن يتعلم النية أوّلا لتحصيل المعرفة، ثم يصحبها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذيْن هما وسيلة العبد إلى النجاة والخلاص.

(٢) العلم قبل العمل

النية والإرادة والقصد عباراتٌ متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصِفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل. العلم يَقْدُمه لأنه أصله وشرطه. والعَمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه. وذلك لأن كلّ عمل، أعني كل حركة وسكون اختياري لا يتم إلّا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة.

(٣) سجود التواضع

ليس في وضع الجبهة على الأرض غرض من حيث إنه جمْع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكّد صفة التواضع في القلب. فإنّ مَن يجد في نفسه تواضعا، إذا استكان بأعضائه وصوّرها بصورة التواضع تأكد تواضعه. ومَن يسجد غافلا وهو مشغول الهمّ بأعراض الدنيا، لم ينتشر من وضع جبهته على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، وكان وجوده عدما. وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يُسمَّى باطلا.

(٤) الجهل مقابل العلم

الجهل بالجهل يسدّ بالكلّيّة بابِ التعلّم، فـمَن يظنّ بالكلّيّة بنفسه أنه عالم، فكيف يتعلّم؟ وكذلك أفضل ما أُطيع الله تعالى به العلم. ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإنّ مَن لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، اشتغل بما أكبّ الناس عليه من العلوم المزخرَفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادّة الجهل ومنبع الفساد.

(٥) من مشكاة النبوّة

قوله عليه السلام: «**إنما الأعمال بالنيات**»، يختص بالطاعات والمباحات دون المعاصي[١]؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، أمّا المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا، نعم للنية دخْل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزْرها وعَظُم وبالُها.

(٦) انبعاث النفْس

الجاهل بتحسين النية وتكثيرها، يقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو آكل لله. ويظن ذلك نية، وهيهات! فذلك حديث نفس، وحديث لسان وفكر، وانتقال من خاطر إلى خاطر. وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا أو آجلا.

(١) يقول العلماء أن هذا الحديث ثلث الإسلام لأنه يشمل أعمال القلب دون عمل اللسان والجوارح، وأقول أن النية طالما تنسحب على الطاعات والمباحات دون المعاصي فليكن الثلثان من هذا الوجه.

(٧) استحضار نيّة الخير

العمل بغير نية صادقة رياء وتكلّف، وهو سبب مقت لا سبب قرب. ومَن كان الغالب على قلبه أمر الدين، تيسّر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، لأن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير. ومَن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه، لم يتيسر له ذلك.

(٨) عبادة ذوي الألباب

نيّات الناس في الطاعات أقسام: منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف، فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء، وهو الرغبة في الجنة. أما عبادة ذوي الألباب، فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبًّا لجماله وجلاله، وسائر الأعمال تكون مؤكِّدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة.

(٩) الإخلاص لغة واصطلاحا

متى كان الباعث واحد على التجرّد، سُمّي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى الـمَنْوِي؛ فـمَن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلِص، ومن كان غرضه محض التقرّب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرّب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل، ولكن خصّصتْه العادة بالميل عن الحقّ.

(١٠) اللهم توفيقا

علاج الإخلاص، كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسّر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، وهذا دقيق غامض قلّما تسلَم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبّه له إلّا من وفّقه الله تعالى.

(١١) نعوذ بالله

الشيطان ملازم للمتشمِّرين لعبادة الله، ولا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة، حتى في كحل العين وقص الشارب وطِيب يوم الجمعة، فإنّ هذه سُنن، وللنفس فيها حظّ خفيّ لارتباط نظر الخلق بها واستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إليها ويقول هذه سنّة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مَشوبا بها شوْبا يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه.

(١٢) دَغَل الشيطان

الغشّ الذي يُمزَج بخالص الذهب له درجات متفاوتة؛ فمنها ما يغلب ومنها ما يقلّ لكن يسهل دركه، ومنها ما يدقّ بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغشّ القلب ودَغَل الشيطان وخُبث النفس، أغمض من ذلك وأدقّ كثيرا.



(١٣) الحريّة الحقّة؟

العبد الحقّ لله عزّ وجلّ، هو من عُتق أوّلا عن غير الله تعالى فصار حرّا طليقا، فإذا تقدّمت هذه الحريّة صار القلب فارغا فحلّت فيه العبودية لله، لتشغله بالله ومحبته وتقيّد باطنه وظاهره بعبادته فلا يكون له مراد إلّا الله. ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يُسمَّى الحريّة، هو أن يُعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد، فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى.

(١٤) الصِّدِّيق؟

لفظ الصدق يُستعمَل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك، فهو صِدِّيق، لأنه مبالغ في الصدق.

(١٥) صدق الوفاء بالعزم

النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقّة في الوعد، والعزم والمؤنة فيه خفيفة. فإذا حقّت الحقائق وحصل التمكّن وهاجت الشهوات، انحلّت العزيمة وغلَبَت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضادّ الصدق في الوفاء بالعزم.

المراقبة والمحاسبة

(١) الجذع والثمرة

المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب. أما الحالة: فمراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه. وأمّا المعرفة التي تثمر هذه الحالة: فالعلم بأنّ الله مطّلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ.

(٢) ثلاثة دواوين!

في الخبر: يُنشَر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: لِـمَ؟ أكان لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم، سُئل عن الثاني: كيف فعلت هذا؟ أبعلم محقَّق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم، نُشر له الديوان الثالث: ألوجه الله خالصا؟

(٣) فاجتنبوه

الخطوة الأولى في الباطل إن لم تُدفَع، أَورثَت الرغبة. والرغبة تورث الهمّ، والهمّ يُورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت. فينبغي أن تُحسم مادة الشرّ من منبعه الأوّل وهو الخاطر، لأنّ جميع ما وراءه يتبعه.



(٤) دوام المراقبة

لا يخلو العبد عن مراقبته لله، سواء في طاعة أو معصية أو مباح؛ فمراقبته في الطاعة تكون بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات، وفي المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر، وفي المباح تكون بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعِم في النعمة وبالشكر عليها.

(٥) الصانع لا الصنْعة

الـمُحِبُّ إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه، نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردّد العبد فيه، صنْع الله تعالى، وله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فُتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جدّا.

(٦) كشف حساب

ينبغي للعبد أن يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسَه على سبيل التوصية بالحقّ، ووقت في آخر ساعة يطالب فيه النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، تماما كما يفعل التجّار في الدنيا مع الشركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا، فينظر مع الشريك في رأس المال وفي الربح والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه.

(٧) التجارة الرابحة

رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه بالمعاصي، وموسم تجارته جملة النهار ومعاملة نفسه الأمّارة بالسوء؛ فيحاسبها على الفرائض أوّلا، فإن أدّاها على وجهها شكر الله تعالى ورغّبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدّاها ناقصة كلّفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يَتدارك به ما فرّط كما يصنع التاجر بشريكه.

(٨) ابدأ بنفسك

العجب أنك تعاقب عبدك وأَمَتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خُلق وتقصير في أمر، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوّ لك وأشدّ طغيانا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضرر طغيان أهلك، فغايتهم أن يشوّشوا عليك الدنيا، ولو عقلْت لعلمْت أن العيش عيش الآخرة، ونفسك تنغّص عليك عيش الآخرة، وهي بالمعاقبة أوْلى.

(٩) هكذا كانوا

إذا حاسب العبدُ نفسَه فرآها قد قارفَت معصية، فينبغي أن يعاقبها. وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورِد من الأوراد، فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف، جبْرا لما فات منه وتدارُكا لما فرّط، فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى.



(١٠) المماطلة!

الشهوة كالشجرة الراسخة التي تَعبَّد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخّرها، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قويّ فأخّرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأنّ طول المدّة يزيد الشجرة قوّة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا. فإن كنتِ أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليّة وتركنين إلى التسويف، فما بالك تدّعين الحكمة، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟!

(١١) وكان فضل الله عليك عظيما

لولا لزوم النفس للمراقبة والمحاسبة في الدنيا، لشقيت في صعيد القيامة وهلكت. وبعد المجاهدة والمراقبة والمحاسبة، لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت. فسبحان من عمّت نعمتُه كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمتُه الخلائق في الدنيا والآخرة فغمرَت.

(١٢) المقامات الستّ؟

عرف أربابُ البصائر من جملة العباد، أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيُناقَشون في الحساب ويُطالَبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات؛ فرابطوا أنفسهم أوّلا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم في المرابطة ست مقامات.

التفكّر

(١) لقد جئتم شيئا إدّا

إن جاوزْتَ النظر في أفعال الله إلى النظر في ذاته فقد حاولْتَ أَمرا إمْرا، وخاطرْتَ بنفسك بتجاوزك حدّ طاقة البشر ظلما وجورا، فقد انبهرَت العقولُ دون مبادي إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا.

(٢) استنباط المعرفة

معنى الفكر: إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، كمن يعرف أنّ الأبقى أوْلى بالإيثار، ثمّ يعرف أن الآخرة أبقى، ويحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أوْلى بالإيثار. أمّا مَن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلّده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر ويميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرّد قوله، فهذا يسمَّى تقليدا ولا يُسمّى معرفة.

(٣) ملمح دقيق

كل متفكِّر هو متذكِّر، وليس كل متذكِّر متفكِّرا. وفائدة التذكار، تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب. وفائدة التفكُّر، تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. وهذا هو الفرق بين التذكُّر والتفكُّر.



(٤) المفتاح؟

إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب، وإذا تغيّر حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر. والفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلّها، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكّر، وأنه خير من الذكر والتذكّر، لأن الفكر ذكر وزيادة.

(٥) مجالات الفكر؟

الفكر قد يجري في أمر يتعلّق بالدّين، وقد يجري فيما يتعلّق بغير الدين. وجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله. وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون نظرا في صفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون نظرا في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

(٦) رذيلة الشّرَه

لو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال، لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولَما اتصف بها البهائم، ومتى كان الشرَه[1] على المرء أغلب، كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقرَّبين أبعد.

(١) الشّره: اشتداد الطلب والحرص على الشيء، وأكثر ما يطلق في الطعام.

(٧) هُدى وشفاء

القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالَمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردّد الآية التي هو محتاج إلى التفكّر فيها مرّة بعد أخرى ولو مائة مرّة.

الحجاب؟

(٨) أفلا تبصرون!

تكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليُسمع لفظه ويُترك التفكّر في معناه. فانظر إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تُركت ساعة ليضربها الهواء فسدَت وأَنتنَت، كيف أخرجها ربُّ الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، ثم كيف خلق المولود من النطفة وغذّاه حتى نما وربا وكبر!

(٩) فانظروا

انظر كيف خلق الله الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة، وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقِصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميّز السامعُ بعضَ الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظُّلمة.

(١٠) نعمة الأظافر!

خلق الله الأظافر على رؤوس الأنامل، زينة لها، وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحكّ بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخسّ الأعضاء، لو عدمه الإنسان وظهر به حكّة، لكان أعجز الخلق وأضعفها، ثم هَدى اليد إلى موضع الحكّ حتى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحكّ إلّا بعد تعب طويل.

(١١) عصَب الحياة

الماء: جسم رقيق سيال مشفّ، متّصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخَّر للتصرّف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، والعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها.

(١٢) تشبيه بديع

من آيات الله: الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يُدرَك بحسّ اللمس عند هبوب الرياح جسمُه، ولا يُرى بالعين شخصُه، وجملته مثل البحر الواحد، الطيور محلّقة سبّاحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جنباته عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر. إن شاء جعله نشرا وإن شاء جعله عذابا.



(١٣) وينزّل الغيث

السحاب مع رخاوته يحمل الماء الثقيل ويمسكه في جوّ السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده وعلى الشكل الذي شاءه، فترى السحاب يرشّ الماء على الأرض ويرسله قطرات لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رُسم لها لا تعدل عنه، ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة لعجزوا.

(١٤) عالِم الغيب والشهادة

كل ما عرفناه نزر قليل حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة الأولياء والعلماء، وما عرفوه قليل حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ، وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة المقرّبون، ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله لم يستحق أن يُسمَّى علما، بل هو إلى أن يُسمَّى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب.

(١٥) من الأدنى إلى الأقصى

يُستفاد من الفكر في الخلْق معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرْتَ من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتمّ. وبلوغ الأقصى لا يكون إلّا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرّك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجوّ وما بين السماء والأرض.

ذكر الموت وما بعده

(١) ليسوا سواء

الناس: إمّا منهمِك: لا يذكر الموت، وإن ذكره فللتأسُّف على دنياه ويشتغل بمذمّته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا. وإمّا تائب مبتدئ: يكثر من ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة. وإمّا عارف منته: يذكر الموت دائما لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وفي غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت.

(٢) سجن المؤمن

الدنيا سجن المؤمن، إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة[١] في حقّه.

(٣) مقام الرضا

التائب معذور في كراهة الموت، والعارف معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة مَن فوّض أمره إلى الله فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فانتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهَى.

(١) التحفة: ما يُتحف به المؤمن من العطيّة، مبالغة في برّه وإلطافه.

(٤) فإنه ملاقيكم

الموت هائل وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه. والطريق فيه، أن يفرغ العبدُ قلبه عن كل شيء إلا ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه.

(٥) الأماني الباطلة

طول الأمل له سببان: أحدهما: الجهل. والآخَر: حب الدنيا. فالمرء إذا أنس بالدنيا وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة ويمني نفسه أبدا بما يوافق مراده.

(٦) لا تسوِّف

البعض إن خطر له في بعض الأحوال أمْر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوّف ووعد نفسه، ولا يزال يسوّف ويؤخّر، ولا يخوض في شغل إلّا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى، وهكذا يؤخّر يوما بعد يوم إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

(٧) الخطير والحقير

إخراج حبّ الدنيا من القلب شديد، وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والآخرين علاجه، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومتى حصل اليقين بذلك، ارتحل عن القلب حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير.

(٨) الأعمال كواشف

الناس مراتب، ولكلٍّ درجات عند الله، وليس مَن أمله مقصور على شهر كـمَن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله. وكل إنسان يدّعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، ويظهر ذلك بأعماله، فيعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، مدلّلا بذلك على طول أمله.

(٩) ألم النَّزْع

النزْع: مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروحَ المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسّه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

(١٠) يا ربّ.. سلِّم سلِّم

دواهي الموت ثلاثة:

الأُولى: شدّة النزْع. الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب، فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة.

(١١) بين يدي الموت

المحبوب عند الموت من صورة الـمُحتضَر هو الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسَن الظن بالله تعالى. وكانوا يستحبون أن يُذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

(١٢) ونحن اللاحقون

الجنائز عبرة للبصير، وفيها تذكير وتنبيه لأهل الغفلة الذين لا تزيدهم مشاهدتها إلا قسوة، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يُحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكّرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانُهم وانقرض على القرب زمانُهم.

(١٣) في الجنائز

من آداب حضور الجنائز:

التفكّر والتنبّه والاستعداد، والمشي أمامها على هيئة التواضع، وحسن الظن بالميت وإن كان فاسقا، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها.



(١٤) سلوى وعزاء

حقٌّ على مَن مات ولده أو قريب من أقاربه، أن يُنزله منزلة ما لو كانا في سفر، فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقرّه ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسّفه لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدُّم وتأخُّر. وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخِّر، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعُه وحزنُه.

(١٥) التذكرة بالآخرة

المقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمَزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت، ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميت كيف تفرّقَت أجزاؤه؟ وكيف يُبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به!

(١٦) ما لا عين رأت

المؤمن يجزع من الموت، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه؛ إذ ينكشف له من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فُتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرْفه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور. فنسبة سعى الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم.

(١٧) اخْتَرْ لنفسك

ما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت، إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثِر وإن شئت فاستقْلِل، فإن استكثرْت فلست بمستكثِر إلا من الحسرة، وإن استقللْت فلست تخفّفَ إلا عن ظهرك.

(١٨) الرؤيا؟

مَن كَثُر كذبه لم تَصْدُق رؤياه، ومَن كثُر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه في نومه أضغاث أحلام. والرؤيا من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي، وهي من أوضح الأدلة على عالَم الملكوت، ولكن الخلق غافلون عنها كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالَم.

(١٩) اللوح المحفوظ

كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومُثبَت في خلق يُعبَّر عنه باللوح، ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، بل لوح الله لا يشبه لوح الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم، وثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه، ولو فتّشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك حرفا.

(٢٠) تعبير الرؤى

النوم مانع سائر الحواس عن العمل، وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحرّكه، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيَّلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، وإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبِّر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية، أيْ معنى من المعاني، فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيّل والمعاني.

(٢١) وهم في غفلة معرضون!

أكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكّن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدّة تشمّرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصائب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم.

(٢٢) هوْل المحشَر

كل عرَق لم يُخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردّد في قضاء حاجة مسلم وتحمُّل مشقّة في أمر بمعروف ونهي عن منكر، فسيُخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب، ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمّل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدّته طويلة مدّته.

(٢٣) ربْحٌ كثير وتعبٌ يسير

ما دام يبقى لك نفَس من عمرك، فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال، تربح ربحا لا منتهى لسروره، واستحقِر عمرك بل عمر الدنيا، فإنك لو صبرْت سبعة آلاف سنة مثلا لتَخلُص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا.

(٢٤) معاني الأسامي

يوم القيامة هو يوم الحسرة ويوم الندامة ويوم االصاخّة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الحاقة ويوم الطامّة ويوم التّناد ويوم الفِراق، وليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب، بل الغرض تنبيه أُولي الألباب، فتحت كلّ اسم من أسماء القيامة سرّ وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها.

(٢٥) ونضع الموازين القسط

الأكثرون خلطوا عملًا صالحا وآخَر سيئا، وقد يَخفى عليهم ولا يَخفى على الله تعالى أنّ الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلّا أن يُعرّفهم ذلك ليبيّن فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحف ويُنصب الميزان وتَشخص الأبصار إلى الكتب: أتقع في اليمين أو في الشمال؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق!

(٢٦) مظالم العباد

ما بين العبد وبين الله خاصة، فالمغفرة إليه أسرع. ومَن اجتمعَت عليه مظالم وقد تاب عنها وعَسُر عليه استحلال أرباب المظالم، فلْيُكثر من حسناته ليوم القصاص، ولْـيُسرّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلّا اللهَ، فعساه يقرّبه إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذي ادّخره لأحبّائه المؤمنين في دفْع مظالم العباد عنهم.

(٢٧) الشيطان حين يضحك

الحمقى إذا سمعوا الأهوال، سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم: استعنْت بالله، نعوذ بالله، اللهم سلِّم سلِّم. وهم مع ذلك مصرّون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على مَن يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فقال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين، وهو قاعد في مكانه! فأنّى يغني عن ذلك من السبع؟!

(٢٨) لعلّ

الله تعالى خبّأ ولايته في عباده، فلعلّ الذي تزدريه عينُك هو وليّ الله. ولا تستصغر معصية أصلا، فإن الله تعالى خبّأ غضبه في معاصيه، ولعلّ مقت الله فيها. ولا تستحقر أصلا طاعة، ولو كلمة طيّبة أو نيّة حسنة أو ما يجري مجراها، فإن الله تعالى خبّأ رضاه في طاعته، ولعلّ رضاه فيها.

(٢٩) غرور الحمقى

الراجي للحصاد؛ مَن بث البذرَ ونقّى الأرضَ وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفْع الصواعق إلى أوان الحصاد. أمّا مَن ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقْيها، وأخذ يرجو من فضل الله أن يُنبت له الحبّ والفاكهة؛ فهذا مغترّ ومُتمنٍّ وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى!

(٣٠) الحَكَم العدْل

كما أنّ إكباب الناس على الدنيا يتفاوت؛ فمنهم منهمِك مستكثِر كالغريق فيها، ومِن خائض فيها إلى حدّ محدود؛ فكذلك تناول النار لهم متفاوت؛ فإن الله لا يظلم مثقال ذرّة. فلا تترادف أنواع العذاب على كلّ مَن في النارَ كيفما كان، بل لكلّ واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه، إلّا أنّ أقلّهم عذابا لو عُرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدّة ما هو فيه.

(٣١) حسْرة الفوْت

أعظم الأمور على أهل النار مع ما يلاقونه من شدّة العذاب، حسرة فوت نعيم الجنّة، وفوْت لقاء الله تعالى وفوْت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة! إذ لم يبيعوا ذلك إلّا بشهوات حقيرة في الدنيا أياما قصيرة، وكانت غير صافية بل كانت مكدَّرة منغَّصة!

(٣٢) طريق الخلاص

اسْتَثِـر الخوفَ من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم، واسْتَثِـر الرجاءَ بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، ثمّ سُق نفسَك بسوط الخَوف وقُدْها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال الـمُلك العظيم وتَسلم من العذاب الأليم.

(٣٣) هُدًى للمتقين

متى أردتَ أن تعرف صفة الجنّة، فاقرأ القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان. وكما أن بين الناس في الطاعات تفاوتا ظاهرا، فكذلك فيما يُجازون به تفاوت ظاهر، والعجيب أنه لو تَقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوّ بناء، ثقُل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغّص بسبب الحسد عيشُك، وأحسن أحوالك أن تستقرّ في الجنّة وأنت لا تسلَم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها!

الخاتمة

الأمالي مجالس، وخير ما تُختم به المجالس الدعاء؛ فالدعاء -كما قال الإمام- سبب لردّ البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لردّ السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض..

وفي رحاب الإحياء، لن نعدم دعوات بالعشرات حرص رحمه الله على نثرها في ثنايا الأرباع الأربعة، وداخل جوْف الكتب الأربعين المندرِجة تحتها، ومن بينها نردّد معه قوله: «جعلنا الله وإياكم ممّن لا تُبطره نعمة ولا تَقْصر به عن طاعة الله معصية ولا يحلّ به بعد الموت حسرة.. ونرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنّه وسعة جوده ورحمته.. ونسأله تعالى أن يُرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده.. وأن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقاما، ظاهرا وباطنا، حتى نودّع الدنيا غير ملتفتين إليها بل متبرّمين بها ومحبّين للقاء الله».

ولأن الاستغفارَ دعاء نستجدي به الغفران من ربّ الأرباب واسع المنة والعطاء، فقد ختم رضي الله عنه الكتاب باستغفار طويل خاشع حري أن تُختم به كل المؤلّفات، فقال: «نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره ممّا ادّعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصّرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصّر كنّا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتْنا إلى تصنّع وتكلّف تزيّنًا للناس في كتاب سطّرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه».



بطاقة الكاتب

* منير لطفي محمّد علي
* مواليد ريف الدقهلية (كفر الروك، السنبلاوين) ١٩٦٥ م
* تَخرّج في كلية طبّ المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدا مع مرتبة الشرف)
* استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدا)
* تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز)
* عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية
* مشرف صفحة أقلام بيضاء في مجلة الديوان الجديد الأدبية الشهرية
* له عشرات المقالات المنشورة بالجرائد والمجلات الورقية (الوعي الإسلامي- اللواء الإسلامي-الجمهورية-الرؤية العمانية) وكذلك المواقع والصحف الإلكترونية (المنار الثقافية الدولية- المثقف-الأمة الإلكترونية-دنيا الوطن- منار الإسلام-صوت العروبة-الجزيرة نت-وغيرها)..
* صدَر له:

١ - أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، ٢٠١٦

٢ - طريقك إلى التميّز، دار عالم الثقافة، ٢٠١٧م

٣- رحلتي مع مرض السكري، دار اليقين، ٢٠١٨م

٤- مفاتيح القراءة، دار اليقين، ٢٠١٨م

٥- بستان العافية، دار اليقين، ٢٠١٨م

٦- حياتنا بعد الستين، دار مدارك، ٢٠١٩م

٧- معا نرتقي، دار ألوان، ٢٠٢٠م

٨- على خطى لقمان، دار ألوان، ٢٠٢٠م

٩- مقامات أبقراط، دار البشير، ٢٠٢٠م

١٠- مشاهير في ذاكرة المرض، الدار البحرينية المصرية، ٢٠٢١م

١١- أحسن تأويلا، دار عالم الثقافة، ٢٠٢١م

١٢-علاوة على كتب أخرى مخطوطة قيْد الإعداد والتهذيب

المراجع

١-إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، طبعة دار القلم

٢-إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، طبعة دار المعرفة

٣-فلسفة الغزالي، عباس محمود العقاد

٤-طواسين الغزالي، عبد الإله بن عرفة

٥-كتاب إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرّخين، علي حسن علي

٦-الإمام الغزالي، صالح أحمد الشامي

٧-الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، د. يوسف القرضاوي

٨- المنقِذ من الضلال، الإمام أبو حامد الغزالي

٩-الإمام الغزالي وجهوده في حركة الإصلاح والتجديد، د. محمد علي الصلابي

١٠-نظرات في فكر الغزالي، د. عامر النجار

١١-الغزالي، طه عبد الباقي سرور

١٢- أبو حامد الغزالي والتصوف، عبد الرحمن دمشقية

١٣-الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك

١٤-أبو حامد الغزالي، حياته وآراؤه ومصنفاته، محمد رضا

١٥-اعترافات الغزالي، د. عبد الدايم أبو العطا

١٦–حجة الإسلام الإمام الغزالي، مأمون غريب

١٧–إحياء علوم الدين، إصلاح عبد السلام الرفاعي

١٨–طب القلوب، صفوة إحياء علوم الدين، محمود عوض

١٩–في صحبة الغزالي، أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

٢٠–مواعظ الإمام الغزالي، صالح أحمد الشامي

٢١–إضاءات على الفكر الاجتماعي الإسلامي، الإمام الغزالي نموذجا، د. حسام الدين فياض

٢٢–تربية النفس وعلاج أمراضها عند الإمام الغزالي، د. عبد المنعم حسن محمد

٢٣–سيرة الغزالي، عبد الكريم العثمان

٢٤–الغزالي فقيها وفيلسوفا ومتصوّفا، د. حسين أمين

٢٥–الغوّاص واللآلئ، مسلم باحث عن الله، د. صمويل زويمر

٢٦–تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة

٢٧–موسوعة حكم ومواعظ الإمام الغزالي، محمد الصالح الضاوي

٢٨–المجدِّدون في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي

٢٩– كيمياء السعادة، أبو حامد الغزالي

٣٠–أخرى (مقالات وسمعيّات ومرئيّات على الشبكة العنكبوتية).

الفهرس

«الأمر جدّ والخطْب جدّ، والآخرة مُقبِلة والدنيا مُدبِرة، والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سدّ، وما سوى الخالِص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق مُتعِب ومُكِدّ»

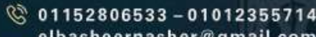
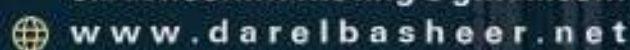


أمالي الغزالي

هنا كتابٌ حبيبٌ إلى القلب أثيرٌ إلى النفس، العِلم لُحمته والعمل سُداه.. يخاطبك بلسان الآخرة ويصرف نظرك إلى الباطن ويبيعك أنفس بضاعة، ألا وهي الإخلاص.. بأسرار العبادات يُبصِّرك، وبكريم الأخلاق يُطهِّرك، ومن شرّ المهلِكات يُنجيك. نصافح بين دفّتيْه إمامًا مجدِّدا عبْر أوْج مؤلَّفاته التي شاعت في البلاد وذاعت بين العباد، وما زادتها المئون من السنين إلّا عبقا وألقا، وإذا حضر الموصوف بَطُل الوصف..رحمة الله عليكَ يا صاحب الإحياء وحُجّة الإسلام وعلَم الأعلام.

ISBN 978-977-278-999-3




01152806533 - 01012355714
elbasheernasher@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com

www.darelbasheer.net

